اهمية العربية في الممالك العثمانية (١)

كان هذا الموضوع في ذهني منذ بضع سنين ولكني صرفتني عنه الحوادث التي حدثت (ويؤلمنا انها حدثت) مخافة ان اكون من المفرقين . اما الآن وقد وصلنا والحمدلله الى حيث لانخاف من تفريق ولا مروق ولا ارتداد ولا رجعى إلى غير ذلك من الالقاب التي كان ينبذ بها المخالف للرأي المرغوب في ترويجه وقد لا يكون ذلك المخالف إلا ثرثاراً بحسب الثرثرة فصاحة او مقلداً بحسب التقليد علماً وحكمةً

أيها السادة : كان يؤلمني أولئك الكتاب الذين كانوا يرفعون اصواتهم وينادون مصرحين ان اللغة العربية لغة ميتة . لغة مضى زمانها فأصبحت عضواً أثرياً في جسم المجتمع تنتابه بسببها العلل والاوجاع من غير ان ينتفع بها بوجه . نعم كنت أتألم من هؤلاء الذين كانوا يزعمون ان اللغة العربية علة الضعف في كيان المملكة العثمانية وأنها أي المملكة العثمانية لاتعزّ إلاّ إذا أميتت هذه اللغة الشريفة واستبدلت بلغة الفريق الحاكم أعني اللغة التركية وأشد ما كان يؤلمني ان أولئك الكتاب كانوا يقلدون عن غير علم . يرون مشابهة وينسون الفارق بين المتشابهين . ولو حللتم افكارهم لوجدتم انهم كانوا يحسبون شعبهم يقابل الشعب الفرنساوي مثلاً ولغتهم تقابل لغته ويحسبون العربية كلغة جزيرة مداكسكر مثلاً اذن فأهلها أي المتكلمون بالعربية بالنسبة اليهم كأهل جزيرة مداكسكر بالنسبة الى الفرنساويين . نعم هناك مشابهة وهذه المشابهة هي ان القوة او الهيئة الحاكمة منهم كما انها من الفرنساويين . ولكن هل تسوغ لهم هذه المشابهة وحدها ان يعاملوا اللغة العربية واخواتها من المتكلمين بها كما يعامل الفرنساويون لغة أهل مداكسكر وشعب مداكسكر . وهل لغتهم بالنسبة الى العربية كاللغة الفرنساوية بالنسبة الى اللغة المداكسكرية ؟ وهل عددهم في المملكة العثمانية بالنسبة الى المتكلمين بالعربية كعدد المتكلمين بالفرنساوية في البلاد الفرنساوية الى عدد المتكلمين باللغة المداكسكرية . وهل في رقيهم العقلي والأدبي يفضلون المتكلمين بالعربية كما يفضل المتكلمون بالفرنساوية في رقيهم هذا أعني العقلي والأدبي الشعب المداكسكري

هذه سؤالات عرضت لنا ولم نستطع دفعها فهل يستطيع هؤلاء الكتاب أن يجيبوا عليها جميعها بالايجاب . أم هم لو أرادوا أن يرجعوا إلى التاريخ وما سطر فيه قبل ثلاث

---

(١) من خطبة تليت في معهد القراءة ببيروت

مئة سنة أو ما هو أقل من ذلك أفيستطيعون أن يروا تاريخاً لهم مسطوراً باللغة التركية؟ بأي لغة كان يكتب كتابهم الافضل منذ ثلاثمئة سنة كصاحب سفينة الراغب وغيره من الادباء والعلماء ولا نقول المحدثين ولا أهل الفقه والتفسير

نحن لا ننكر على هؤلاء الكتاب عثمانيتهم ولا ننكر عليهم الغيرة على الشعوب العثمانية ورغبتهم في أن تجتمع لغة كل هذه الشعوب وكلمتهم الى لغة واحدة وكلمة واحدة فترجع الدولة العثمانية بسبب هذه الوحدة الى مكانتها السالفة من العزة والمنعة ونفوذ الكلمة بين سائر الدول الاوربية . نعم لا ننكر عليهم الحماس القومي ولا الغيرة الوطنية الملية ولكننا ننكر عليهم صحة القياس والاستنتاج وبالتالي صحة الرأي والسياسة اللذين كانوا يروجونهما في كتاباتهم . نسلم لهم ان ثم مشابهة بين الفرنساويين من حيث نسبتهم الى اهل جزيرة مداكسكر وبينهم من حيث نسبتهم الى المتكلمين بالعربية كما ألمعنا الى ذلك . ولكن هنالك فوارق عديدة غفلوا عنها لا تجوز لهم بوجه من الوجوه ان يقيسوا العربية على المداكسكرية ولا المداكسكريين على المتكلمين باللغة العربية

على اننا لا ننكر ان اخواننا الكرام من عقلاء الاتراك ومشيختهم الحكماء ما رضوا عن تطرف هؤلاء الكتاب الشبان ولا يرضون عنه . وهم يعلمون انه ليس من السهل أن تستبدل اللغة العربية بلغة اخرى من لغات أهل الارض أجمع . بل يعلمون انه لا يناسب عزّ الدولة ومجدها وحرمتها أن تستبدل اللغة العربية باللغة التركية فتفقد كل التأثير المعنوي الذي لنا في تاريخ العرب وفي الآداب العربية فان هذا التاريخ وهذه الآداب تجعل معنا قلوب مئات من الملايين في الصين والهند وتركستان وجزر المحيط ومعظم شمالي قارة افريقية وبعض أواسطها . كل ذلك يعرفه حكماء الاتراك ومشيختهم من العقلاء الذين لم يكونوا ولا يكونون قط راضين عن اولئك المتفرنسين من شبان تملوا بفرط الحمية والوطنية فكاد يؤدي بنا فرط حميتهم هذه الى ضغائن وأحقاد نحن في غنى عنها

أيها السادة : لم أشعر من نفسي الا وقد ذهب بي هذا الاستطراد كل مذهب فاعذروني وائذنوا لي بالرجوع الى مساق موضوعي وهو « أهمية اللغة العربية في الممالك العثمانية » فأقول : أهمية كل لغة ترجع الى امرين الاول عدد المتكلمين ومنزلتهم في المجتمع والثاني مافيها من الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمر في الذهن من أنواع المعاني واختلاف الاعتبارات

اما من حيث الأمر الاول فأقول ان المتكلمين باللغة العربية في الممالك العثمانية غير البلاد العربية يبلغون نحواً من سبعة ملايين . ثلاثة ملايين ونيف في العراق والجزيرة

الفراتية ومثل هذا العدد او اكثر منه بقليل في ولاية حلب وما يجاورها وفي البلاد السورية على العموم وهذا العدد من المتكلمين بالعربية اذا قوبل بالارمن العثمانيين كان خمسة أضعافهم تقريباً واذا قوبل باليونان والارمن معاً بلغ ضعفيهم على الاقل واذا قوبل بالاتراك ساواهم ان لم يزد عليهم زيادة تبلغ أن تكون متصرفية من الدرجة الاولى او الثانية

واذا زدتُ على هذا العدد من المتكلمين بالعربية اخوانهم في نجد والحجاز واليمن من الذين لا ينازع في عثمانيتهم بلغ مجموع المتكلمين بالعربية نحواً من ستين في المئة من جميع العثمانيين على اختلاف اجناسهم وألسنتهم معاً

لو لم يكن من متكلم باللغة العربية إلا من ذكرنا لكان من الرأي والحكمة أن ينظر الى هذه اللغة نظرة خاصة ولا اقول انه كان يجب ان تقدم على اللغة التركية ولكني اقول انه كان يجب أن تعامل في أيام الدستور كما تعامَل اللغة الترنسفالية في بلاد الترنسفال التي ضُمَّت من عهد غير بعيد الى ولايات الامبراطورية الانكليزية . وكلنا يعلم لقرب العهد ما كان مما دعا إلى ضم هذه البلاد إلى املاك التاج الانكليزي ونعلم ايضاً ان ضمها كان بحق الغلب والقهر الذي لا ينازع فيه . ومع ذلك وفضلاً عما بين الامتين الانكليز والترانسفال من التفاوت في القوة والعدد والتهذيب لم يكبر على عقلاء الانكليز وكبارهم أن يجعلوا اللغة الترنسفالية لغة رسمية كالانكليزية في المدارس والمحاكم وفي مجلسي النواب والاعيان

كان يمكن أن أقف على ما وصلت اليه مما سمعتموه ولكني لا أستطيع وأرى نفسي تنازعني إلى ذكر كثير مما أرغمتها على كظمه أثناء ما مر بنا في السنين الاخيرة مخافة أن يكون في ذكره ضرر . أما الآن وقد انقشع ذلك العارض عنا وجعل رأي العقلاء وأهل الحكمة والحنكة يعود شيئاً فشيئاً إلى منزلته التي ينبغي أن تكون له فلا بد لي من القول ان هناك عثمانيين غير من ذكرنا . عثمانيين في الاميال والعواطف . وهؤلاء العثمانيون في اميالهم وعواطفهم يجمع بيننا وبينهم جامع اللغة العربية فكلما رأوا من العثمانية الحالية التفاتاً للعربية واحتراماً لها بالقول والفعل معاً لا بمجرد القول زاد ارتباطهم بنا معنوياً وآلت هذه الزيادة في الارتباط الى زيادة وجاهتنا وكرامتنا من حيث نحن أمة عثمانية في عيون الشعوب والممالك الغربية والعكس بالعكس . ومن هؤلاء العثمانيين اخواننا في مصر والسودان وعددهم لا ينقص عن الخمسة عشر مليوناً من النفوس . ومع انهم لسلسلة من السياسات متعددة انفصلوا عنا انفصالاً حسياً سياسياً فهم لا يزالون على أشد ارتباطهم المعنوي بنا ولا يبقى هذا الارتباط كما هو الآن بيننا وبينهم إلا اللغة العربية والاشتراك التام بيننا وبينهم في الآداب الماضية والحالية . فان قيل انما يربطنا بهم رابط الاسلام

لا اللغة قلت لهذا القائل أصبت وأخطأت . اما انك اصبت في ان الرابط الاولي هو الاسلام فواضح وأما خطاؤك فلانك فصلت الاسلام والآداب الاسلامية عن اللغة العربية والآداب العربية . من ينكر ان الارتباط بيننا وبين اخواننا في مصر والسودان هو أشد بمرات من الارتباط بيننا وبين اخواننا في تركستان . وكذلك الارتباط بيننا وبين مسلمي تركستان هو اشد منه بيننا وبين المسلمين في داخلية الصين . ولماذا ذلك اذا كان الرابط هو مجرد الاسلام بقطع النظر عن اللغة العربية والآداب العربية . نعم ان من يجتهد ان يفصل الاسلام عن اللغة العربية والآداب العربية ويزعم ان بذلك قوة للمسلمين وزيادة في شدة ارتباطهم بعضهم ببعض ولاسيما بالاتراك العثمانيين . مثل هـذا الرجل جاهل بأحوال العمران فضلا عن انه جاهل بالاسلام وشدة ارتباطه باللغة العربية

ومن الذين يتكلمون العربية ايضاً التونسيون والجزائريون وأهل المغرب الاقصى ومن اليهم في الواحات وجهات الصحراء الكبيرة وعددهم ايضاً لا يقل فيما أرجح عن عدد اهل مصر والسودان ان لم يزد عليه . وارتباط هؤلاء بنا شديد كما تعلمونهُ وكما دلت عليه الاحوال الاخيرة . ومع ما بيننا بحسب الظاهر وبين التونسيين والمراكشيين من البعد مع ذلك اذا خُيِّر هؤلاء بيننا وبين الفرنساويين فالمرجح عندنا انهم يختارون العثمانية الحاضرة على أمل حسن المآل ويعرضون عن الزنبقة الناضرة لا خوفاً من سوء المنقلب. على انهم لا يختارون العثمانية للتركية الاستانبولية . ولا يعرضون عن باريس لمجرد كره النصرانية انما هم يتشوفون الى ما كان لهم من المجد والسؤدد فيأنفون ان يكونوا مسودين بعد ان كانوا سادة. ولما كان مجدهم وسؤددهم القديمان مرتبطين بمصر والشام والعراقين معاقل العربية بعد نجد والحجاز لا جرم انهم يميلون الى العثمانية صاحبة الحرمين وصاحبة هذه البلدان لا إلى العثمانية التركية او الكردية او الارمنية وبعبارة اخرى العثمانية التي لغتها اللغة التركية التي تتكلم بها هذه الشعوب الثلاثة . انزع العربية والآداب العربية من شمالي افريقية (اي طرابلس وتونس والجزائر والمغرب الاقصى كله) وانظر ماذا يحل بأهله من الاستكانة والخنوع . لا يزال العهد قريباً بما كان من الطرابلسيين في الحرب الايطالية الاخيرة فانهم فعلوا ما فعلوه انفة من أن يقال ان أبطال العرب وأنسال الفاتحين الاولين استكانوا لسيادة الطليان ورضوا للذلة والصغار . نعم لا انكر ان حميتهم كانت حمية دينية ولكن هذه الحمية الدينية كانت لولا العربية والآداب العربية والتقاليد العربية لا تختلف كثيراً عن حمية المورو في جزائر الفيليبين حمية تحامي عن النفس وتدفعها

الى عمل مجيد ولكنها لا قديم لها ولذلك يصعب توجهها نحونا نحن العثمانيين

ومن الذين يتكلمون العربية كل طلبة العلم النابغين وأهل الفقه المحققين الذين تقتدي بهم الامة الاسلامية وتخصهم بمزيد التجلة والاحترام في سائر اقطار الهند والصين وممالك ايران وما اليها من بلاد خراسان وما وراء النهر وبلاد التتار في شرقي آسيا وأوربا .ولا يقلّ عدد هؤلاء الاعلام فيما اظن عن مليون من النفوس هم خاصة الناس حيث كانوا وأهل العلية والوجاهة منهم . ولهذا المليون من عارفي اللغة العربية مرجع الفضل في العطف على العثمانيين والدولة العثمانية . وأعتقد انه كلما زاد عدد هؤلاء زادت مشاركة العالم الاسلامي لنا في الحاسيات وكلما قلّوا قلّت. اعرف كثيرين من هؤلاء الاعلام الافاضل معرفة شخصية ولا أزال أذكر حديثاً دار بيني وبين بعضهم . قلت لهم أتستبدلون لو خيرتم لغتكم بلغة من أرقى لغات اوروبا قال لا لا نرضى بذلك اصلاً . قلت أتستبدلونها باللغة العربية قال نعم نعم ونحسب ان قد اصبنا اعظم سعادة وأعظم شرف بهذا الاستبدال . وأعرف من فضلاء التتار وأعلامهم مثل هذا العلامة الفاضل الموما اليه وكلهم يرى رأيه في اللغة العربية الشريفة اي انه لا يتأخر لا هو ولا قومه ساعة قبل ان يستبدلوا لغتهم باللغة العربية على حين انهم لا يستبدلونها بأرقى اللغات الاوروبية ولو زيد لهم فوقها اللاتينية واليونانية القديمة

لو كان لي من الامر شيء وعندي مال لانفقتُ على تعليم العربية او قلّ على تعزيزها في الصين والهند والتركستان مليون جنيه في السنة على الاقل وأكون مع الايام الرابح ادبياً ومادياً ولو كنت تقدمت على الزمن الذي انا فيه خمسين سنة وكان لي من الامر شيء لكنت عززت العربية في شمالي افريقية الى اقصى غاية تكون في الامكان وأرجح ان لو كان هذا التعزيز لكانت الحال الآن على غير ما وصلت اليه

ايها السادة : ان لغة يتكلم بها نصف سكان المملكة العثمانية وهي فوق ذلك لغة مصر والسودان وكل شمالي افريقية بين شواطىء المتوسط والصحراء الكبيرة . وتعلمون ما كانت نسبة هذه البلدان الينا ولا تزال نسبة بعضها منا الى الآن . ثم هي فوق ذلك لغة اكثر من مليون من خيرة مئة وخمسين مليوناً من المسلمين في الهند والصين والتركستان. هذه اللغة لها بل ينبغي أن يكون لها من الاهمية في المملكة العثمانية اضعاف ما كان لها لحد الآن . هذه اللغة والمفروض على كل فقيه ومفسر ومحدث من علماء الاتراك انفسهم أن يعرفها اكثر مما يعرف التركية جدير بالامة العثمانية عن آخرها تركيها قبل عربيّها ان تنزلها بالمنزلة التي لها . اوليس من الغفلة بل من الخرق في السياسة ان نقدم عليها اللغة الفرنساوية فتكون هذه رسمية دونها وهي سيدة اللغات الشرقية بل سيدة اللغات اجمع

اللغة العربية هي لغة علمائكم ايها الاخوان الاتراك لغة اخص خاصتكم من اهل العلم والدين وهي عندهم مقدمة على اللغة التركية لانه يغتفر لهم في علمهم ودينهم ما اذا قصروا دون الوقوف على اسرار اللغة التركية ودقائق ما تحتمله تراكيبها من المعاني ولا يغتفر لهم مثل هذا التقصير في اللغة العربية . وأكثر من ذلك ان اللغة العربية هي لغة كرام آبائكم الاولين ومستودع علومهم وآدابهم وتخيلات شعرائهم . بل لعلمائكم الذين وُلدوا في الاستانة والروم ايلي وآسيا الصغرى من المؤلفات في اللغة العربية في مدى قرنين من السنين او ثلاثة ما يزيد على مؤلفات علماء العراقين والشام ونجد والحجاز في تلك المدة على ما ارجح . ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلت ان أبلغ المؤلفات في العربية وأكثرها دلالة على علم مؤلفيها بعد اعتلاء شأن الدولة العثمانية انما هي للاتراك العثمانيين ولمن قربه سلاطين هذه الدولة العظام

ومن جملة ما اذكر من اسماء هؤلاء الائمة الاعلام العلامة ابي السعود بن محمد العمادي قاضي السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد فان كتابه ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم كتاب من البلاغة وحسن البيان على مالا يوفى من حق وصفه الا ان يقال فيه انه جمع بين الكشاف وأنوار التنزيل فصاحة وبلاغة وعلماً وتحقيقاً وزاد عليها . وهنا اذكركم ايها السادة بصاحب الكشاف فانه العلامة جار الله الزمخشري ومن نسبته تعلمون نسبه فانه ابن عم الاتراك العثمانيين ان لم يكن ابن ابيهم . ومثل هذا العالم علماء كثيرون قاموا من بين الفرس والترك والتركمان والديلم والتتر . لم يمر قرن او ربع قرن لم يقم فيه عالم مؤلف في اللغة العربية منذ اوائل الدولة العباسية الى وقتنا الحاضر . وكثيرون من هؤلاء العلماء كانوا كما المعنا من الاتراك العثمانيين

وبالاجمال اقول ايها السادة انه مرت قرون في تاريخ الاسلام كانت فيها اللغة العربية لغة العلم والادب والدين لكل الشعوب التي ذكرناها وكانوا اشد عليها غيرة وأكثر لها احتراماً وتعظيماً من العرب انفسهم ولعلها كانت لهذه الامم المشرقية الاسلامية بمثابة اللغة اللاتينية واليونانية معاً للامم الاوربية المسيحية . الا ان كثيرين من علماء هذه الامم لا يزالون الى اليوم يؤلفون باللغة العربية ولا اقول ذلك على التخيُّل بل عن شاهد فانه وصلني منذ بضع سنين كتاب « وفية الاسلاف وتحية الاخلاف » لمؤلفه العلامة شهاب الدين ابن بهاء الدين بن سبحان بن عبد الكريم القزاني الموجاني وهو من علماء التتار من ولاية قزان التابعة لروسيا اوربا . وأرجح ان هذا الفاضل لا يزال حياً يُرزَق الى الآن . فانه بلغ في التأليف الى آخر هذا الكتاب سنة ١٢٩٣ هجرية . وكتابه لا ينقص في فصاحة

الفاظه وبلاغة تراكيبه ودقة تعبيره عن كتاب مثله من تآليف أحد علماء مصر او الشام او العراق . وجميعنا نعرف كتاب لقطة العجلان وغيره من مؤلفات العالم الفاضل سلطان بهوبال وقد طُبعت في مطبعة الجوائب في حياة مؤلفها ووقف على طبعها صاحب تلك المطبعة العلامة المرحوم احمد فارس وأثنى عليها غاية الثناء . وهي خليقة بما قيل فيها. ولا يزال الى الآن في خراسان وبلخ وبخارا وما الى هذه البلدان من البلاد الاسلامية كثيرون من العلماء الاعلام الذين تفتخر اللغة بمؤلفاتهم كما كانت تفتخر بمؤلفات اسلافهم. ولا اشك ايضاً ان ثم بين الاتراك العثمانيين انفسهم اليوم من العلماء الاعلام في العربية من نسبتهم الى غيرهم من علماء مصر والشام لا تنقص عما كان عليه ابو السعود في ايامه بالنسبة الى علماء القطرين المشار اليهما

فتكريم العربية تكريم لكل هؤلاء واحترامها احترام لهم . ولا اشك انه إذا أعطيت هذه اللغة الشريفة المنزلة التي ينبغي أن تكون لها والتي تستحقها في المملكة العثمانية أي ان تُحسب رسمية قبل الفرنساوية ونظير التركية في مجلس المبعوثان لاتفقت علماء هذه اللغة في كل البلدان التي ذكرناها على اعظام هذا العمل وعرفوا كيف يكافئون الحكومة التي اهتمت باخراجه إلى حيز الوجود . وأقل مكافأة يستطيعها هؤلاء العلماء هي ان يوحدوا رأي الامة ويعززوا جامعتها العثمانية تعزيزاً لم تبلغه في زمن من ازمنتها

يحسن بي ان اقف حيث وصلت الآن . وأما اهمية العربية من حيث الاتساع والصلاحية للاتساع في الفاظها وتراكيبها بحيث تستطيع الافصاح عن كل ما يمر في الذهن من المعاني فأتركه لوقت آخر وفقاً لمقتضى الحال واني لآمل من كل ذي فضل من محبي هذه اللغة الشريفة ان يتجاوز عما فرط مني من الحدة في سبيل بيان اهمية هذه اللغة الشريفة ويعزز ما اتيتُ به لتصل هذه اللغة الشريفة الى المنزلة التي تحقُّ لها في مجلس نوابنا العثماني والسلام

الحثيون

ادّت الاكتشافات التنقيبية في الخمسين سنة الاخيرة الى ما لم يكن يُحلَم به من وجود أمة قوية جداً في شمالي سورية وان شئت فقل ولايات حثية متحدة تألفت منها مملكة تجارية حربية خضع لها يوماً كل شمالي سوريا وسواد العراق ومعظم ما بين النهرين وأغلب آسيا الصغرى

ويقول بعض كبار الباحثين انها اجتازت من هناك الى قبرص ومعظم جزر الارخبيل اليوناني والى بلاد اليونان ومكدونيا وتجاوزت من هناك الى ايطاليا حاملة معها ما كانت من علم وصناعة بما لاينقص عما فعلته اختها الامة الفينيقية العظيمة

يقول كثيرون ومنهم الاستاذ سايس المستشرق الانكليزي الشهير ان اصل هذه الامة العظيمة طوراني وأنها جاءت من الارضين بين بحر قزبين والبحر الاسود « ان لم يكن الى ابعد من ذلك شرقاً » واستولت على كبدوكيا وامتدت من هناك شمالا وغرباً وجنوباً وجعلت عاصمتها اخيراً في كركميش وما زالت فيها حتى هاجمها الاشوريون واستولوا على عاصمتها وحينئذ انقرض ملك هذه الامة العظيمة وحل محلها الاشوريون ثم البابليون في ايام نبوخذنصر بعد معركة هائلة جرت بينه وبين المصريين. وكان نخو ملكهم اجتاح فلسطين وسوريا واستولى على كركميش ليقف في وجه البابليين ويصدهم عن اجتياح سوريا وفلسطين ليستلحقها بمملكته فسار اليه نبوخذنصر الى كركميش والتحم بينهما القتال فانكسر المصريون شر كسرة وانهزموا الى بلادهم لايلوون على شيء

واستولى على كركميش من بعد البابليين الفرس والماديون وبعد هؤلاء صارت الى الاسكندر المكدوني ثم الى قواده من بعده ومنهم الى الرومانيين. وتقلبت الاحوال على كركميش وتلونت بها الايام كثيراً الى ان عمها الخراب اخيراً وتنوسي امرها قروناً بل تنوسي اسمها الاول اعني كركميش وسميت باسم آخر. وبهذا الاسم الآخر اعني جرابلس (هيرابولبس) تعرف خرائبها في الوقت الحاضر

السبب في خراب هذه المدينة وتناسي اسمها

والسبب في ذلك على ما أرى انها بعد ذهاب أهلها تجار ما بين النهرين وشمالي سوريا وآسيا الصغرى الخ تراجعت عن عظمتها شيئاً فشيئاً وانتقل عزها التجاري ايام ملك

نبوخذنصر الطويلة الى بابل . ولما قامت الدولة للادية الفارسية لم يَعْنَ الفرس بها لانها ليست من مدنهم ولبعدها نوعاً عن مركز دولتهم فزاد انحطاطها انحطاطاً وتراجعها تراجعاً. ولما انتقلت الدولة منهم الى اليونان استجد هؤلاء مراكز تجارية غيرها ولعلها كانت صارت في أيامهم الى قرية حقيرة ان لم تكن كانت قد صارت الى الخراب التام فجددوا بنيانها حينئذ لحسن موقعها التجاري وللاعتبار الذي كان لها قديماً ودعوها بلغتهم «هيرابوليس» ولا يبعد ان يكون مناسباً في المعنى لاسمها القديم. ويلوح لي أنه على الراجح ترجمة له. وتغلبت على اهلها اليونانية بكثرة الذين استوطنوها منهم فغلب من ثم اسمها الجديد على اسمها القديم أولا لغلبة العنصر اليوناني فيها وثانياً لان اسمها اليوناني كما أشرنا ورجحنا هو ترجمة لاسمها القديم . وبيان ذلك ان اسمها الاصلي يمكن ان يحلل كما أرى الى كلتين كير او قير وكيش او كموش وكموش اسم اله عند الموآبيين يقرب في المنزلة من البعل عند الكنعانيين والصيدونيين . ومعنى قير قرية او كورة في الراجح وعليه يكون معنى كركميش قرية كميش او كموش . وهيرابوليس معناها مدينة هيرا . وهيرا اسم اله عندهم فالمناسبة اذن بين معنيي الاسمين او الترجمة ظاهرة كل الظهور ومما لا يخفى على متأمل

لنرجع بعد الاستطراد الذي استطردناه الى رأي الاستاذ سايس فنقول : — يظن الاستاذ ان اصل الحثيين طوراني جاؤوا الى سوريا من الشمال مما بين بحر قزبين والبحر الاسود او نقول بوجه اعم من شرقي آسيا الصغرى وهو رأي جماعة غيره من المشهورين على انفراد او متابعة له. والذي اراه ان الحثيين هم اخوان الصيدونيين من ابناء كنعان المشار اليه في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ومهاجرهم واحدة اي شبه جزيرة العرب وكان سيرهم في غزوهم ومهاجرتهم من الجنوب الى الشمال . وبعبارة اوضح كان سيرهم من حضرموت وعمان وأرض البحرين الى العراق وأرض بابل وما بين النهرين

ومن شمالي بابل عرجت بطون منهم الى شمالي سوريا واستمرت بطونهم الاخرى على سيرها شمالا تتابع الفرات وتقيم لها حيث حلت المراكز التجارية وفي الوقت نفسه كانت تقيم الحصون والمعاقل الحربية لحماية تلك المراكز التجارية . والظاهر من التنقيب لحد الآن انهم احتلوا كل شمالي سوريا قبل ان اتخذوا كركميش مركزاً لتجارتهم وعاصمة او معقلا ومباءة لهم . وأرجح ان هؤلاء الحثيين هم الذين يعرفون في تواريخنا العربية بالدولة النبطية وأن العراق كان دار هجرتهم الاولى وبابل بيت مقدسهم المشترك . وأرجح ايضاً أنهم هم والهكسوس(١) من القبائل العربية المتحالفة كما سنلمع الى ذلك وأن تلك

(١) الهكسوس على ما ارجح لفظ مركب من هيق وسوس ومعنى هيق ذكر النعام ومن الرجال

القبائل تحت رياسة الحثيين او النبط افتتحوا العراق وسوريا ومصر وأن فتوحاتهم في ذلك الحين كانت اشبه بفتوحات العرب الاخيرة تحت الراية الاسلامية والرياسة القرشية العدنانية . وأن ما حصل في الفتوحات الاسلامية هذه حصل مثله في الفتوحات الحثية القديمة

ان عارفاً بالفتوحات العربية الاسلامية لا يلبث ان يرى الاختلاف بين علي ومعاوية ويرى معظم اليمانية والقرشيين في جانب معاوية في الشام ومصر ومعظم العدنانية والانصار في جانب علي في العراق . ثم لا يلبث ان يرى الاختلاف بين عبد الله بن الزبير وبين عبد الملك بن مروان ويرى الاول يقاتل حتى يقتل تحت استار الكعبة وليس حوله الا بضعة من الرجال بعد ان كانت العربية والعراق من مشايعيه وأنصاره

ثم لا يلبث ان يرى شيعة العباسيين ومعظمهم من خراسان تحت قيادة ابي مسلم يقاتلون الامويين المروانيين في خراسان وفارس وأرمينيا والجزيرة وما هو الا ليلة وضحاها حتى يرى الخلافة العباسية في بغداد وعاصمتها يخفق في الآفاق ويرى العراق سائداً والشام مسوداً بعد ان كان الشام آمراً عزيزاً والعراق مأموراً ذليلاً يسوق الحجاج اهله بعصى الامويين سوق الانعام وقد انقرضت خلافتهم من الشرق آخر الدهر بعد ان كانت تهز المسكونة من بحر الظلمات (الاوقيانوس الاتلانتيكي) غرباً الى حدود الهند شرقاً مدى قرنين فأصبحت

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ

ثم لا يلبث ان يرى الاندلس مملكة مستقلة عن الشام وبغداد معاً ذات حول وطول ولها امير مؤمنين على انفراد لا تعطي مقادتها لابي جعفر المنصور ولا لابنه المهدي ولا لابن هذا الهادي حتى ولا لاخيه هرون الرشيد ولا لابنيه المأمون و المعتصم على ما وصلت اليه خلافتهم من الابهة والغنى والجاه ولا سيما اثناء وزارة البرامكة المشهورين ووزارة الفضل والحسن ابني سهل

المفرط الطول وجاء في لسان العرب — وفي حديث أحد انخذل عبد الله بن ابي في كتيبة كأنه هيق يقدمهم . الهيق ذكر النعام يريد سرعة ذهابه اه

ومعنى سوس الخيل وقد حفظت العراقية هذا المعنى لهذه اللفظة وأما العربية فلم يبق فيها الا الاشارة البعيدة اليه في كلمة سائس فانه عند الاطلاق ينصرف الى من يسوس الخيل فتأمل

وعليه فيجوز ان يفهم من التركيب اما ملوك الخيل او اصحاب نعام الخيل والارجح انهم كانوا فرساناً وأدخلوا الخيول الى وادي النيل فكثرت فيه حتى أصبحت مصر مصدراً للخيل ومركزاً لتجارتها فيما بعد

ثم لا يابث راء ان يرى الدولة العُبَيديَّة في المغرب ومصر دون العباسيين ثم لا تلبث حتى تنتزع فلسطين والشام من ايديهم وتصبح دولة كادت تغطي على الدولة العباسية في الغنى والجاه والسطوة واتساع دائرة الملك

دع الاندلس جانباً ودع كذلك الدولة العُبَيديَّة وخلفاءها الفاطميين وانظر الى ما حدث في خراسان وشرقي النهر وما قام هنالك بعد المعتصم والواثق من الدول والامارات وما كان بينهم من المنازعات والاختلافات حتى تكاد لا تفطن ان هنالك دولة اوخلافة عباسية بل يذهب عن ذهنك جملة ان هاته الدول انما هي ولايات من ولايات دولة عربية استبدَّ ولاتها فيها بالاحكام بداعي ما اصاب خلفاءها من الوهن والعجز لانهما كهم في الملاذ والحظوظ النفسانية واستمرارهم على ذلك حتى تجرأ عليهم اخيراً ملوك الديلم البويهيون واندمقوا عليهم في بغداد كرسي خلافتهم وموطن عزهم فأصبحوا هم الآمرين الناهين والخلفاء من العباسيين فزاعة لها صورة الملك وشيء من اسمه ومظهره الخارجي والملك في الحقيقة لهؤلاء المتغلبين

افرض ان كانت الايام طمست على ما نعرفه من آثار الدولة العربية الاسلامية كما طمست على آثار الدولة الحثية وذهبت عنا بما نعرفه من تاريخها المفصل المكتَتَب ولم يبق لنا عنها الا آثار كالآثار الحثية وبقايا خطوط كوفية غريبة ضاعت عنا الصلة بينها وبين بقية الخطوط الباقية الى الآن — فاذا كنا نظن بها . اكان من السهل علينا ان نرى أصلها ومنشأها في مكة من أرض الحجاز وأن القائمين بها اول الامر كانوا عصبة دينية صغيرة لم يتجاوز عددهم الاربعين الا بعد سنين من دعوتهم . ثم لما عظم امرهم شيئاً بزيادة اعدادهم من الموالي والمستضعفين قام عليهم الملأ في مكة وضيقوا عليهم الخناق حتى هرب معظمهم الى الحبشة ولم يبق الا ذوو الجوار منهم . ثم اضطروا بعد موت ابي طالب الى هجرة اوطانهم والتجأوا الى المدينة وما زالوا فيها مُسْتَضْعَفِينَ لا يُؤْبَهُ لهم مدة ولكنهم تقووا سنة بعد سنة ولم يمض على هجرة رسولهم عشر سنين حتى عمت دعوتهم معظم البلاد العربية وشايعهم اغلب اهليها

نعود فنقول افرض ان غاب عنا تفاصيل هذه الدولة ولاسيما اول نشأتها ولم يبق لنا عنها الا آثار متفرقة هنا وهناك كهذه التي لنا عن الحثيين الآن — افما كان يجوز ان يقوم مثل العلامة سايس المستشرق الشهير وبناء على بعض الآثار التي كشفتها له الايام في السند والتركستان وفي خراسان وكرمان وفارس والعراق يقول ان هذه الدولة العظيمة

الاثر هي طورانية او اريانية منشؤها في تركستان شرقي بحر قزوين او على مقربة من ضفافه الجنوبية او الجنوبية الشرقية

ان ذلك ليس ببعيد اصلاً ولا يقدح بعلم الاستاذ سايس وفضله ان يذهب الى مثل هذا الرأي ولكن مثلنا الدارج يقول الحصاة الصغيرة تسند خابية وأنا أشير الآن الى هذه الحصاة من التاريخ البابلي التي حملتني ابتداء على ان اقول ما قلته في أصل هذه الامة الحثية العظيمة

الحصاة الاولى والى ماذا تتجه دلالتها

جاء في تاريخ اشور وبابل للمرحوم جميل مدور قال وأول مرة افتتحت بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وعلى يد ازدرخت المادي استفتحها عنوة بعد حصار عنيف ولما دخلها فتك في اهلها فتكاً ذريعاً ومثّل بهم تمثيلاً شنيعاً وركب فيهم من العسف والجور ما لم يسعهم معه الصبر فلجأوا الى مهاجرة البلاد فراراً بأنفسهم وخرجوا هائمين على وجوههم وكان من حديثهم بعد ذلك انهم تألبوا يداً واحدة وجعلوا دأبهم العبث في الارض لا يدخلون قرية الا وطئوها واستباحوا اهلها وأرزاقها حتى بلغ سوادهم الى الديار الشامية فأنزلوا بها البلاء وفشا فيها القتل والنهب والسبي زماناً ثم زحفوا الى مصر وقد كثف لفيفهم بمن انضم اليهم من نواحي الشام من اسارى وغيرهم ونفروا في عرض البلاد وشأنهم ما ذكر حتى انبثّ شرهم وتفاقم امرهم فأجفل لهم المصريون اجفالا شديداً وتأهبوا لقتالهم فكانت بين الفريقين وقائع عديدة تواترت ازماناً وكثرت فيها الدماء من الجانبين حتى عجز المصريون عن كشفهم وأجلت عاقبة الامر عن استيلائهم على معظم بلاد مصر قهراً

ولما استقرت قدمهم هناك ثقلت وطأتهم على البلاد وتمادوا في الظلم والفساد وبقي ذلك امرهم مدة خمس مئة سنة او تزيد الى ان كان عهد توتمس المصري فعمد فيهم الى الحيلة وعمل على تفريق كلمتهم فقسّمهم احزاباً ثم جعل يواقع كل فيئة على حدتها حتى بدد شملهم وفرق سوادهم وأجلاهم عن ارض مصر . انتهى نقل المرحوم مدور. تاريخ اشور وبابل طبعة بيروت وجه ٦٩ — ٧٠

ويظهر من هذا النقل ان قبيلة كبيرة او عدة قبائل جاءت غازية من العراق فافتتحت اولا ما بين النهرين وسوريا الشمالية «او ولاية حلب» ثم عطفت على الديار الشامية ومنها زحفوا على مصر بمن انضم اليهم من نواحيها من اسارى وغيرهم فأجلت عاقبة امرهم عن

استيلائهم على معظم تلك البلاد قهراً وما زالوا فيها سادة ومسلطين الى ان كان عهد طوتمس المصري فأثار هذا عليهم حرباً عواناً اضطروا في اواخرها ان ينجلوا عن مصر الى الديار الشامية . فلم يكتف طوتمس بذلك ورأى ان السياسة تقضي عليه ان يتعقبهم الى سوريا فتتبعهم الى هناك وبقي يحاربهم عدة سنين افتتح في اثنائها معظم معاقل فلسطين وسوريا الى ما وراء مدخل حماه . ومن ثم اصبحت سوريا مرسحاً للحروب وشن الغارة من المصريين على الحثيين في الجزيرة والعراق على دولة التطامسة في سوريا ومصر

كل ذلك أي مغزى هذا النقل عن الحملة البابلية على الشام ومصر وما كان من ارتداد الهكسوس الى سوريا واضطرار طوتمس الى محاربتهم فيها — كل ذلك بشير اشارة خفية ولكنها واضحة بعد اذ يتفطن لها الى ما كان بين الهكسوس والحثيين من الروابط الجنسية والسياسية والمقاربة في العوائد واللغة وما يترتب على ذلك من الاميال والنعرة والا فما الداعي ان يتجشم طوتمس« وغايته ان يحرر بلاده من القوم» مشاقّ حروب هائلة معهم في سوريا استغرقت سنيناً عديدة بعد حربه في مصر لم تبق ولم تذر وأتت على اليابس والاخضر . وكما سألنا عما حدا طوتمس للاحقة حروبه في سوريا هكذا فلنسأل عما حدا الملوك الرعاة ومقاتلهم ان ينحازوا الى سوريا « وهي بلاد الحثيين».انهم ما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يكن بين الفريقين اواصر قربى ووحدة في الجنسية والسياسة العامة . بل كان الاولى بهم ان يخضعوا للغالب ويستسلموا له استسلام المغلوب ويبقوا في بيوتهم ومسارح انعامهم الواسعة في ارض جاسان حيث ربيت اجيالهم مئات سنين من ان يندغروا او يندمقوا على امة غير امتهم وفي الوقت نفسه ربما كان بينهم وبينها من المباعدة والبغضاء مثل ما كان بينهم وبين اقتالهم المصريين ملوك ثيبة

ونحن هنا نشبع الكلام في كل ما لدينا من الحقائق التي اخذناها عن العلامة الاستاذ سايس وأمثاله من كبار الباحثين والمنقبين ونضيف اليه ما لدينا من المعلومات او الحصى التاريخية العربية والملاحظات الكتابية واللغوية مما لم يفطن لها اولئك الاعلام ولو فطنوا لها لكانوا فيما نظن افسحوا لها مجالا يعدل من آرائهم كل التعديل او بعضه

آثار الحثيين الاسمية ومواطنها

اجمع اغلب الباحثين والمنقبين ان لم يكن كلهم على ان حث وخط وخاط وخاطي وخطا وخطي (١) وخاطاي وخاطيني وحثي واحد وبعبارة اخرى هذه الصور كلها هي تبدلات

---

(١) النون في خطنا مماله الى الضم كالفتحة في يوم بلغة مدينة دمشق ونون خطني مماله الى الكسر كما في لفظهم عين

عن اسم واحد لمسمى واحد وأزيد فأقول ان هيت هي تحريف عن حث وهيشي تحريف من حثي وأن قطيني ايضاً تحريف عن خطيني ولا يبعد ان يكون كوت وتصغيرها كويت هما تحريف عن خوط وتصغيرها خويط وخوط تبدل عن خاط

اذا علمت هذا نرجع فنقول ان هذا الاسم اي الخط لا يزال محفوظاً عندنا لغة في خط وخط البحرين وخط اليمامة وخط هجر ومدينة الخط يعني هجر ورماح الخط والرماح الخطية ومدن الخط او قرى الخط وهي القطيف والعقير وقطر

ومفاد هذا التركيب اي قولهم خط عمان وخط البحرين هو كما لو قلنا الخط الذين يسكنون عمان والخط الذين يسكنون البحرين ومثله جاء قولهم عرب الحجاز اي العرب الذين يسكنون الحجاز وتميم البصرة وتميم الكوفة وازد عمان ويجوز ان يعنى به البلاد التي كان الخط يسكنونها في عمان او في ارض البحرين فينقلب من ثم مفاد التركيب الى العلمية المكانية كما هو المراد الآن عند الاطلاق

يظهر من هذه المحفوظات او الآثار اللغوية الباقية ان الخط كانوا في عمان والبحرين واليمامة . ومثل هذه الآثار لا تزال ايضاً في العراق وشمالي سوريا في اسم هيت بالدرجة الاولى فانها تحريف حث أو تبدل منها وفي كويت وكوت بالدرجة الثانية فانها عندي تحريف خويط وخوط وخوط تحريف او امالة في لفظ خاط وقريباً منه في لهجاتنا خول وخال لاخي الام

واذا انتقلت من العراق الى سوريا الشمالية رأيت الاهلين الى اليوم يسمون بحيرة حمص ببحيرة قطيني . ومن اذا حدق ببصر بصيرته لا يرى خاطيني في قطيني

مر في سيرك بين بحيرة قطيني وقلعة الحصن تسمع المثل الدارج هناك درى البقيعة (بالالف او بالهاء) كثيرة طاحون تل حتي وراها فان اسم الحتي لا يزال باقياً لتل هناك بجانب طاحونة قديمة العهد من غير تبديل ولا تحريف

ابق على سيرك حتى تصل البحر غرباً فهناك على مقربة من مدينة طرسوس القديمة تسمع اسم قلعة الهنيشي حدق هنا بنظر بصيرتك فانك ترى الحثي في لفظ الهيشي كما يرى وقد رآه ايضاً جماعة المستشرقين في لفظ الحيتا والشيتا والخط والخاط والخاطي والخاطاي والخاطيني

بين البحر عند مصب النهر الكبير وبين بحيرة قطيني (بحيرة حمص) على أنف جبل عال بين واديين عظيمين احدهما الى اليمين وهو وادي النهر الكبير والآخر الى اليسار وهو وادي الدسير تقوم قلعة الحصن الشهيرة تطل على سهل البقيعة المنبسط بين جبل لبنان

وجبل الحلو . وهو بدء سلسلة جبال النصيرية لتحميه من الغزاة سواء مروا في وادي النهر الكبير او في وادي الدير ولا طريق ثالث

هذه القلعة الشهيرة الحصينة هي قلعة الحثيين كما اثبت ذلك الموسيو ساڤوى قنصل الدولة الفرنساوية في مدينة طرابلس الشام (١) حوالي سنة ١٨٨٠ وكما لا يخفى على من له المام بتاريخ الحثيين . حدق بنظرك في لفظ قلعة الحصن ترى فيه بعد اجهاد بصرك ما رأيته في لفظ بحيرة قطيني فان خاء خاطين انقلبت مع البحيرة الى قاف ومع القلعة الى حاء وقلبت الطاء او التاء المفخمة صاداً مع الحاء وبقيت طاء مع القاف . والبلاد هناك تسمى بلاد الحصن كما تسمى القلعة بقلعة الحصن ومع انها كانت تسمى رسمياً بحصن الاكراد او بقلعة حصن الاكراد لم يثبت لها هذا الاسم الا في السجلات الرسمية وبقي اسمها على الالسنة كاسم البلاد حولها اعني قلعة الحصن . وأصل اللفظ الخطيني فتوالى عليه مع الايام عدة تحاريف لسانية اولها الخطين وآخرها الحصن وثبت هذا الاخير كما تثبت آخر تطورات المتحجرات النباتية والحيوانية

ومن اغرب المحفوظات او الآثار الاسمية ما جاء في معجم البلدان لياقوت قال : حتي — قال نصر هي من جبال عمان او جبلة . والحت موضع بعمان ينسب اليه الحت من كندة وليس بأم لهم ولا اب . وقال الزمخشري الحت من جبال القبلية لبني عرك من جهينة — وقال الحازمي الحت محلة من محال البصرة خارجة من سورها سميت بقبيل من اليمن نزلوها — والقبلية سراة فيما بين المدينة وينبع — انتهى عن المعجم . وجاء في لسان العرب في باب حت ما نصه — الحت قبيلة من كندة ينسبون الى بلد ليس بأم ولا اب . والحت ايضاً تمر لا يلتزق بعضه ببعض . ويليه في الغرابة وبعد الاشارة ما جاء في باب «حث» وتمر حث لا يلزق بعضه ببعض (وهو كتمر حت بالتاء بنقطتين) والحث الرمل الغليظ اليابس الخشن . وقد جاء في اللسان ايضاً ان الخط هو سيف البحرين وعمان وقيل بل كل سيف خط اه لسان العرب

اذا علمت ان السيف هو ساحل البحر والوادي وأن الخط كانوا يسكنون اسياف البحر وعمان واليمامة واذا علمت ان الحث هو الرمل الغليظ اليابس الخشن وأكثر رمال ساحل عمان والبحرين بل وحضرموت ايضاً وسواحل اودية اليمامة كلها او معظمها من هذا النوع من الرمل — اذا علمت كل ذلك فلا يبعد ان ترى في ذلك اشارة الى ان الخط او الحث كانت بلادهم بلاد رمال خشنة فضلاً عن ان كونها ساحلاً لبحر او واد

(١) انظر الكلام على قلعة الحصن في المجلد الثالث من المقتطف صفحة ١٠٤ و١٢٣

ولورود حت وحث بمعنى التمر الذي لا يلزق بعضهُ ببعض فلا يبعد ان نرى في ذلك اشارة ايضاً الى انهم كانوا قبائل كثيرة ومتباعدة ترأسها قبيلة ممتازة كقريش بالنسبة الى بقية قبائل ربيعة ومضر في الفتح الاسلامي الاخير . قلت ما قلته وأنا اعلم بعده على انه ممكن وفي الاشارات التاريخية والفيلولوجية ما هو اخفى منه

آثارهم التاريخية الكتابية

جاء في الكتاب المقدس في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ان بني حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان

وأن بني كوش سبا وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا . وأن بني رعمة شبا ودان . وجاء أيضاً ان كوش ولد نمرود الذي ابتدأ أن يكون جباراً في الارض وكان ابتداء مملكته بابل وآرك وآكد وكلنة في أرض شنعار

أما نمرود من أولاد كوش فالنص صريح ان ابتداء مملكته كان بابل وآرك وآكد وكلنة في ارض شنعار وهي العراق او معظم ما بين البصرة الى بغداد

وأما سبا من أولاده فمسكنه سبا في بلاد العرب وعاصمة سبا مأرب حيث السد المشهور . وأما ارض حويلة فالمرجح فيها انها اليمامة الكبرى وتشمل ولايات الوهابيين الخمس الحريق والرياض والسدير والوشم والقصيم . وأما سبتة ورعمة وسبتكا فلا يبعد أن يكون رعمة هم بنو ريام الذين لا يزالون في شمالي عمان يتاخمون ارض البحرين ثم لايزال يعرف الى اليوم في ارض البحرين اسم شباوددن على ما نقله ياقوت في معجم بلدانه المشهور

إذا تدبرنا ما مرَّ يمكننا أن نقول اجمالاً ان الكوشيين سكنوا اليمن او قسماً منه ونجداً وعمان وأرض البحرين وشرقي رأس خليج فارس حيث لا يزالُ بقايا اثرية من اسمهم منحجرة في خوزستان او بلاد خوز لان خوز وكوش لا يصعب على بصيرة الفيلولوجي أن يرى أحد الاسمين في صاحبهِ ثم في العراق ايضاً

وجاء في هذا الاصحاح ايضاً ان كنعان ولد صيدون بكره وحثًّا . وبموجب هذا النص يكون حث ابن كنعان وكنعان اخو كوش فالنسبة او العلاقة الجنسية بموجب هذا النص التاريخي بين الكنعانيين والحثيين والكوشيين واضحة كل الوضوح

وإذا كان الكوشيون هاجروا الى العراق من شبه جزيرة العرب فاخوانهم الكنعانيون هاجروا منها ايضاً ويؤيد هذا ما هو منقول عن هيرودوتس ان الفينيقيين الكنعانيين الصيدونيين والصوريين كانوا اولا في ارض البحرين ومنها هاجروا الى شواطىء المتوسط

ثم إذا سلمنا ان فوط وبنط واحد وأن بنط التي هي ارض الآلهة وأرض مشرق الشمس هي اليمن كما يذهب اليه الاكثرون اصبح من المرجح ان مواطن الكوشيين والكنعانيين الاولى كانت في شبه جزيرة العرب ومنها ارتحلوا مهاجرين الى العراق وسوريا

لنا هنا ملاحظة نذكرها وهي أن التاريخ المقدس بعد أن يذكر بني كوش يعود فيقول بعبارة خصوصية ان كوشاً ولد نمرود الذي ابتدأ أن يكون جباراً في الارض الذي كان جبار صيد امام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وآرك الخ . والاتيان بالعبارة على هذه الصورة يستأنس منه ان بطناً من بطون الكوشيين ولنسمهم النماردة باسم نمرود رئيسهم كانوا اول من كانت لهم رياسة في العراق ولان الكتاب يذكر اولا بني كوش ومواطنهم وكلها في جزيرة العرب وفقاً لرأي الاكثرين من المحققين . فالنماردة اذن مهاجرون الى العراق دخلاء عليه لا اهلوه الاصليون فيه

ثم لما صار للنماردة الكوشيين رياسة في العراق اخذت بطونهم الاخرى اذا انكرت شيئاً من حال معاشها في شبه الجزيرة ترحل الى العراق فيشتد بهم ازر اخوانهم هناك وصولتهم بما يزيد في سلطانهم واتساع دائرة ملكهم فزاد ذلك من اطماعهم وهيج شهوة الفتح والاستيلاء فيهم فاحتاجوا الى المادة من الرجال فاستصرخوا ابناء عمهم الكنعانيين فضلاً عن اخوانهم من سبا ورعمة وحويلة فأصرخوهم فبعثوا حملة الى الشام ومصر كان الكنعانيون المقدمين فيها . والظاهر ان الحثيين او الخاطيين (باشباع فتح الخاء او بالتشديد وترك الاشباع) بقي معظمهم ما بين النهرين وشمالي سوريا

كان خطر لي اولاً ان الحملة الحثية على سوريا كانت مستقلة وأنها سارت من هيت على طريق السماوة ووادي حوران وأنها من حوران اخذت طريق فتوحاتها شمالا على الشام وبعلبك وحمص وحماه وحلب وانطاكية . ثم من حلب أخذت طريق كركميش وكبدوكية ومن انطاكية واسكندرونة بعد أن استولت على ابواب كيليكية تتبعت غزواتها في هذه البلاد غرباً وشمالا . ولكني الآن أرى غير ما ذكرت وأرجح ان الكوشيين أيام النماردة لما استتب لهم الملك على قسم كبير من العراق بين رأس خليج فارس وبين بابل خافوا أن يتألب عليهم القوم وينبذوا سلطتهم فاستنجدوا اخوانهم الكنعانيين من حضرموت واليمن وعمان فجاؤوهم من كل حدب وصقع من أودية عين ودوعن وحضرموت . ومن اليمن من غور تهامة ونجد قبائل كنانة وهمدان وخولان . ومن عمان وأرض البحرين قبائل وبطون كبيرة ومن جملتها وأكثرها عدداً الخاط او الخط او الحث فضاق العراق عن هذه القبائل الكنعانية والكوشية وكانوا قد ذاقوا حلاوة

الاستيلاء والغلب وتحركت فيهم نهمة الغزو والفتح فسيروا القبائل التي جاءت لنجدتهم والتي رحلت اليهم في بَعْثَيْن بعث عن طريق دجلة وآخر عن طريق الفرات. أما بعث دجلة فترأس الحملة فيه اشور وأشور في الارجح عبارة عن عشيرة كانت بين القبائل او البطون الكوشية النمرودية فخرجت من بابل في طريق دجلة غازية هي ومن انضم اليها من قبيلتها الكبرى فدوّخوا البلاد حتى وصلوا الموصل فجعلوها عاصمة لهم ثم من ديار بكر امتدوا شرقاً وشمالاً ما استطاعوا حتى بلغوا اورمية ووان فصدتهم جبال اراراط العالية وجبال قره ضاغ وطبرستان وما اليها من بلاد مادي عن التقدم . ولما توزع من محاربتهم على البلاد التي افتتحوها قلت الحامية عندهم فأصبح سكان البلاد المتاخمين اقتالاً لهم وعلى حروب متواصلة معهم فشغلهم ذلك عن التوسع وعن التطلع للرياسة الكبرى اجيالاً . وأما بعث الفرات فساروا في طريقهم عليه حتى بلغوا كركميش ومن هناك صح فيهم قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

رأوا الفرات يأخذ بهم شمالا الى جهات ملطية ورأوا ممدًّا له يأخذ بهم شمالاً بغرب الى عينتاب وعرعش وتلك الجهات . والظاهر ان سواحل سوريا ومصر كانت قبلة لانظارهم فسار جمعهم الاكبر جنوباً يفتتحون مدن سوريا وفلسطين حتى بلغوا مصر فاشتد الكفاح بينهم وبين المصريين وانقشع عنهم غباره وقد استخلص الحثيون منهم الدلتا الكبيرة وكل مصر السفلى وانحازت الجنود المصرية فوقفت في ثيبا المعروفة خرائبها اليوم بالكرنك والاقصر حي منها او ضاحية من ضواحيها على ما أظن وكانت الحاميات الحثية والكنعانية قد قلّت بما توزع منها على جانبي الفرات وفي الجزيرة وبعض كبدوكية وكيليكية وعلى الاخص في سوريا فعقدت صلحاً مع المصريين على الجزية او شيء منها ورضي المصريون بذلك

والذي أظنه أيضاً ان ملوك مصر لذلك الحين كانوا أصلاً من شبه جزير العرب من بلاد بنط بلاد الآلهة وبلاد مطلع الشمس ولكنهم كانوا قد استقلّوا في مصر عن اوطانهم الاصلية وتلبسوا بالزي والعوائد والعبادات على ما كان عليه لونها وشكلها في مصر وتركوا من ازيائهم وعوائدهم وعباداتهم التي كانوا عليها حينما هاجروا من العربية الى العدوة الثانية من البحر الاحمر وأخذوا ينظرون الآن الى الغزاة الذين اجتاحوا عليهم بلادهم كما ينظرون المصريون اليوم « أو كما كانوا ينظرون ايام الفاطميين » الى العراقيين مثلاً او الى اهل عمان وحضرموت او الى اهل نجران ووادي دوار ولا سيّما اذا كانوا من القرامطة او من الاباضيين

الدكتور غراهم

فقدت جامعة بيروت الاميركانية طبيباً من خيرة اطبائها بل من خيرة اطباء كندا والولايات المتحدة بل من خيرة اطباء اوربا وأميركا

وقد كان في جيله لتلامذته وللمدرسة الطبية الاميركانية في بيروت ما كان المرحومان الدكتور فانديك والدكتور ورتبات لتلامذتهما ولتلك المدرسة في جيلهما مع بعض الفوارق الآتية

(اولاً) ان خدمة المرحوم الدكتور هرس غراهم بلغت اثنتين وثلاثين سنة ونيفاً وأما خدمة المرحومين للمدرسة فلم تتجاوز التسع عشرة سنة للمرحوم ورتبات والاربع عشرة للمرحوم كرنيليوس فانديك

(ثانياً) ان الصفوف (الغرف) في ايام استاذينا الكبيرين فانديك وورتبات كان معدل عدد تلامذتها اقل منه في ايام المرحوم غراهم فضلاً عن قصر مدة سني خدمتهما بالنسبة الى مدة سني خدمته كما المعنا . ولذلك فتلامذة المرحوم غراهم بلغ عددهم نحواً من خمسة اضعاف عدد تلامذتهما . ولايضاح ذلك اقول ان عدد تلامذة استاذنا الاكبر كرنيليوس فانديك الذين اخذوا شهادتهم الطبية في ايامه لا يزيدون عن السبعين تلميذاً وأما عدد تلامذة المرحوم غراهم فبلغ الى السنة الفائتة خمسمئة تلميذ ونيفاً . وكانوا اي تلامذة استاذنا الاكبر اكثرهم ان لم يكن كلهم من سوريا وأكثرهؤلاء الاكثر من لبنان فيما ارجح بخلاف تلامذة غراهم فانه كان بينهم الكثيرون من الارمن واليونان حتى كاد اللبنانيون يضيعون بينهم فضلاً عمن اتوا من مملكة ايران ومن العراق وكردستان وروسيا ومن الاناضول والبلغار شمالا وشرقاً ومن قبرص وجزر اليونان غرباً ومن مصر والسودان الى الحبشة جنوباً وكل هؤلاء فضلاً عمن قد جاؤوا من المهاجر حملوا معهم اسم غراهم استاذاً من اكبر الاساتذة وطبيباً من اكابر الاطباء الذين يشار اليهم بالبنان كما كان يُشارُ الى استاذينا المرحومين الا ان دائرة شهرة المرحوم اتسعت وامتدت على نسبة عدد تلامذته وعلى نسبة تعدد بلدانهم وكثرتها

قضى هذا الاستاذ الكبير نحبه ومضى الى رحمة ربه في سبيل من مضى صباح الاثنين ٢٧ شباط الماضي (فبراير) ودفن يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاته

احس يوم الاثنين في عشرين شباط بشيء من الانحراف في صحته فلم يحفل به

وزاد ما به من الانحراف يوم الثلاثاء فنسب ذلك الى بدء نزلة صدرية كانت اعتادت ان تنتابه من قبل واستمر على ما كان عليه من تعليم وزيارات طبية كعادته فدعي ذلك النهار لعيادة مريض مصاب بالتهاب دماغي من قبيل مرض النوم او نوع منه ويظن انه اخذته عدوى المرض من مريضه هذا . ويوم الاربعاء بعد الظهر دعي الى وادي شحرور فذهب وعاد قبيل الغروب وهو يحس بقفة برد وقشعريرة وقبل ان يصل الى بيته وجد احد اصدقائه ينتظره ليعود مريضاً عنده فذهب مع ذلك الصديق على رغم ما كان يشعر به من الضعف والانحطاط . واشتد عليه البرد في بيت ذلك الصديق بما لم يستطع اخفاءه وتحمله فلُفّف بحرامي صوفي وهكذا وصل الى بيته ومع ذلك بقي يكابر المرض ويقاويه

حكت مسز غراهم قالت لما استفاق من نومه صباح الخميس رأيت البطء ظاهراً في قيامه وقعوده ولباسه وسائر حركاته مما لم اعهده منه من ذي قبل ولما جلس على المائدة رأيت ازرار صدرته غير مضبوطة التزرير وكذلك شريطة حذائه . وهذا مما لم يسبق له به عادة فانه مذ كان لم يكن يتغافل عن الاناقة اللائقة في اللباس والحذاء وما اليهما . قالت فعلمت مما رأيت انه ليس على استواء في صحته فقلت له أليس من الافضل ان تستريح اليوم في فراشك وترسل الى تلامذتك انك باقٍ في البيت فأجابني احب الي ان الاقي حتفي في شغلي لا على فراشي قال هذا وترك البيت الى المدرسة وهيئة التعب بادية على وجهه وفي جميع حركاته

ولحظ تلاميذه في المستشفى اثناء سماعه تقاريرهم الطبية كل عن مريضه او مرضاه انه لا نجأة له على استماعها كعادته ولحظوا ان احدى شرائط حذائه محلولة وأنه حاول عقدها غير مرة فلم يقدر فتركها على حالها . ولما تم سماع التقارير قام يريد الدخول الى احدى الغرف الخصوصية فلم تساعده قواه فسقط الى الارض لا بعي فحُمِلَ حملاً الى سرير في المستشفى فبقي فيه الى ان لفظ انفاسه الاخيرة

لم تغب شمس ذلك اليوم حتى عرفت بيروت عن آخرها بمرضه واشتد قلق الناس عليه يوم الجمعة مساء وتواردوا رجالاً ونساء على بيته وعلى المستشفى يسألون عن صحته وزاد اضطراب المدينة عليه مساء السبت ونهار الاحد فلم يَبقَ حديث غير حديث غراهم او الحديث عن غراهم وعن ضعف الامل بشفائه وعظم الخسارة التي تخسرها المدينة والبلاد عموماً بفقده

وبدأ الناس يتحدثون بأخلاقه وما كان من شدة اهتمامه بمرضاه فضلاً عن مهارته في صناعته وأخذوا يقصون عنه اقاصيص كانت الى ذلك الوقت محفوظة في صدور اصحابها

اقاصيص عما كان يفعله سرًّا من مساعدة من كان يراهم محتاجين الى المساعدة حقيقة ويستحقونها وعن عرفانه الجميل لمعارفه وأصدقائه ولا سيما لمن كان منهم اندفع بعامل شهامة لتقديم خدمة له اياً كان

سمعت محدثاً يحدث قال اول ما جاء الدكتور غراهم الى بيروت كان رقيق الحاشية وكان يحب ان يظهر بمظهر اجتماعي يليق به وبصناعته ومركزه فذهب الى فلان احد الخياطين وقال له هل تصنع لي ثلاث بذلات ثياب وتمهلني بالثمن مدة قال الخياط مظهراً الاريحية والمسرة نعم بكل سرور اصنع لك ما شئت وأمهلك بالثمن ما شئت

حدث بعد ذلك ان مرض هذا الخياط فاستدعى الدكتور غراهم ولما ابل طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا ورقة حساب لك عندي فقد سبق فدفعتها لي معروفاً قال الخياط لكن يا دكتور انا موفق في شغلي لله الحمد وأستطيع أدفع حسابك ولا اشعر بشيء من التضييق على نفسي وعيالي ولا على شغلي ورأس مالي فلم يسمع المرحوم برهانه ولا أصغى لالحاحه في قبول اجرة زياراته

ثم حدث ان مرضت امرأة الخياط فدعاه لعيادتها وبعد ان تماثلت الى الصحة ولم يبق من حاجة الى تطبيب ولا الى طبيب طلب ورقة الحساب فقال الدكتور لا حساب لك عندي وأصرَّ الخياط على ان له حساباً . وعلمت من المحدث ان الدكتور رحمه الله ما زال الى ان توفي لا يتقاضى صديقه الخياط الا نصف ما كان يتقاضى امثاله ممن كانوا يتطببون عليه

لما اشتد الحال بالدكتور نهار الاحد لم يبق بيت من بيوت بيروت المعروفة لم يعرف ذلك كأن مئات من التلغرافات او التلفونات كانت تنقل اخبار مرضه وتقارير الاطباء اليه بل كان يتناقل بأسرع من البرق ما كانت تهمس به عنه الاطباء همساً فيما بينهم . وأسبابه ان المتوافدين الى بيته والى المستشفى للسؤال عنه كانوا كثيرين يأتون جماعات جماعات فتلتقي الجماعة الراجعة مع القادمة احياناً على باب بيته او على بوابة المستشفى وكان الراجعون يسألون وهم في الطريق وعلى ابواب بيوتهم قبل ان ينزلوا من مركباتهم او اوتومبيلاتهم عن سلامة الدكتور وماذا سمعوا عنه وما يجيبون به كان يتناقله السامعون الى جيرانهم ومن هؤلاء الى جيرانهم وهلم جرًّا وكانت الامهات اشد حزناً وجزعاً عليه من الآباء . وأي ربة بيت معروف في بيروت لم تكن تعرف الدكتور غراهم ولها تمام الثقة به ان من جهة نفسها او من جهة زوجها وأولادها

يوم الاحد مساء ظهرت عليه امارات التحسن نخف وجيب القلوب واستبشر الناس

وباتوا يتململون بالآمال وكذلك اصبحوا وفاتهم اختبار الاجيال الذي اعرب عنه الشاعر حيث قال

وسالتك الليالي فاغترت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

فاتهم قبل ان تهزهم هزة الفرح بخبر تحسن حاله فوجئوا بخبر موته وكان ذلك الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ صباحاً . توفي فجأة بما وصل من الالتهاب الى مركز التنفس فعاد التراب الى التراب وعادت النفس الى خالقها . وما كان اكثر الباكين عليه وما كان اكثر المسترجعين

اما الجامعة الاميركانية فكأنما اصابها زلزال انتفضت له من اساساتها وحادت منه ذات اليمين وذات الشمال جدرانها فوقف من فيها حيارى اساتذة ومعلمين وتلامذة لا ينبسون ببنت شفة وخفتت اصواتهم جميعاً

اما التلامذة الطبيون فكنت تراهم سفع الوجوه مبهوتيها مطرقين بأعينهم الى الارض كأنهم يخافون ان يتكلموا فيقولوا غير ما يريدون . ولما اعلن نائب الرئيس خبر وفاته كان كالمتعثر بدموعه تحس ذلك في صوته وكأنك به لا يحب ان يصدق ما يقول لهوله وشدة وقعه في نفسه فذكرتني حالته بقول القائل منذ الف سنة

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الافواه ألسنها والبرد في الطرق والاقلام في الكتب

وكأني بأبياته هذه تصوّر احساسات نائب رئيسنا وجميع اساتذتنا واحساسات بقية المعلمين والتلاميذ ولاسيما تلاميذ القسم الطبي

ولم يلبث الحال طويلاً بعد اعلان خبر الوفاة حتى نظر اهل رأس بيروت الراية الاميركانية تخفق مخنوقة على سارية عالية فوق برج بناء القسم العلمي ثم لم تابث الريح التي كانت تهب كليلة ان هبت هوجاء ثائرة تحاول تمزيق الراية او ترمي بها في مجاهل الفضاء فلما اعياها ذلك عمدت الى السحائب فساقتها امامها جبالاً وعقدت مياهها دموعاً اراقتها حزناً بالغاً على من استنزف عيون البيروتيين دمعاً وقلوبهم اسى وأسفاً ولاسيما ابناء جامعتها الاميركانية

نقل جثمان المرحوم بعد ظهر الاثنين الى صدر منتدى الجامعة الاكبر وأقبل تلاميذه وأصحابه يودعونه ويرونه لآخر مرة في هذه الحياة الدنيا فتوارد المودعون زرافات زرافات من بعد ظهر الاثنين الى الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء

وفي الساعة العاشرة صلي عليه فكان المشهد رهيباً جداً فانه على امتلاء النادي حتى لم يعد

يسع الحضور وكاد لايستطيع متقدم ان يتقدم ولا متأخر ان يتأخر كان السكوت تامًّا لايجسر متنهد ان يتنهد ولا باكٍ ان ينشج حتى ولا مصدور ان ينفث. وبعد الصلاة حمل التابوت تلامذته الى بوابة الطبية حيث وُضع في سيارة خاصة والناس قد ملأوا الساحات والطرقات والمشارف المجاورة

وسارت به جنازته وكأنما سارت المدينة كلها وراءها ولا غرابة في ذلك فان الشخصية الكبيرة تؤثر في النفوس على نسبة بعد همتها واتساع دائرة عملها سواء كان صاحب تلك الشخصية طبيباً اومعلماً عالماً من علماء الدين الافاضل اومن علماء الدنيا الافرق اوكان ذا منصب شغله لوجاهته وغناه فانه يكتب في النفوس وعلى القلوب بأعماله صورة تظهر بالصورة التي اراها امام عيني وأنا اكتب ما اكتب عن هذه الشخصيه الكبيرة اعني شخصية الدكتور غرام

من يصنع الخير لايعدم جوازيه لايذهب العرف بين الله والناسَ

ولد الدكتور غرام في كرلتون من اعمال كندا في الخامس عشر من آذار (مارس) سنة ١٨٦٢ وكان اكبر اولاد ابيه من امرأته الثانية فهو اخ لسبعة عشر اخاً وأختاً

وكانت كرلتون مسقط رأسه مدينة صغيرة حينئذ لكن كان فيها من المدارس العمومية ما لا ينقص عن غيرها من امثالها فدرس فيها الى أن بلغ السابعة عشرة وعلم بضعة اشهر في بضها ثم ترك التعليم وأقبل على صناعة ابيه وكان صانع مركبات وجعل همه صنع المركبات وتعلو بنها وبعد ان اتقن هذه المهنة عاد الى طلب العلم وتتلمذ لجامعة تورنتو ثم لجامعة ولاية مشيغان حيث اخذ شهادته الطبية

ثم ارتبط بخدمة مجمع بوسطن التبشيري طبيباً لارسالية عينتاب . وفي طريقه اليها مرَّ بالاستانة وصدق على شهادته الطبيه. وفيما هو هناك تعرف بابنة احد مشاهير الوُعَّاظ الاميركان فاقترن بها في الثالث من نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٨٥ فكانت له افضل رفيق ومعين الى ان توفاه الله

وبقي في خدمة الارسالية في عينتاب ثلاث سنوات رفيقاً للدكتور شبرد ومساعداً له في مستشفى تلك المدينة ومدرستها الطبية التي كانت تابعة لكلية تركيا المركزية او الوسطى (Central Turkey College) وانتقل في شتاء سنة ١٨٨٨ الى حلب حيث بقي نحواً من سنة في خدمة ارسالية في تلك المدينة ومن هناك انتقل الى بيروت سنة ١٨٨٩ وارتبط بالكلية الاميركانية الطبية فلم يلبث ان تعين استاذاً فيها

ولم يتم السنة حتى مكَّن نفسه في نفوس التلامذة ورفاقه من الاساتذة والمعلمين وامتلك

اكرام دائرة مديري الكلية ولم تأت السنة الثالثة حتى عرف اسمه في بيروت وفي اماكن عديدة خارجاً عنها وصار يقصد من الجهات البعيدة ويرجع اليه في بيروت عند الشدة

عرفتُ من احد تلامذته سنة ١٨٩٥ ان تلامذة الكيمياء وكان قد تولى تعليمها بداعي تغيب استاذها كانوا يجتهدون ان يراجعوا مُطوَّلات هذا العلم تحكُّكاً به وتبجحاً بعلمهم عليه فكانوا يرونه ابداً فوقهم يعرف ما عرفوه ومايزيد عنه وهكذا اتفق لغيرهم في فرع آخر لم يكن استاذه فجربوا ما جرب به طلبة الكيمياء فوصلوا الى ما وصل اليه تلامذة ذلك الصف

قال فيه احد رفاقه الاساتذة انه «عث الكتب» لانه كان لا تفارقه الكتب يطالعها مطالعة درس وتبحر لا مطالعة تَلَهٍّ وتَشَبُّع فايعتبر به المعتبر وليعلم ان شهرته ومكانته في النفوس لم تأته عفواً ولا اتفاقاً ولكنها اكتسبها بشق النفس وبعد الهمة والمثابرة على العمل

وقبل ان اختم كلامي عنه اقول انه شديد العناية بمريضه يظهر اعظم اهتمام بمرضه مهما كان ويبالغ في فحصه فلا يفرغ من ذلك حتى يملك ثقة مريضه تمام الامتلاك . وكان فوق ذلك حلو المعشر فكه الحديث سريع الملاحظة لا يتبرم بعليل ولا يتضجر من كثرة مراجعة ولو كانت في غير محلها

مواد كلية في النحو واللغة

مديون ام مدين — مظاهرة ام تظاهرة — مرسح ام مسرح

استاذي العزيز الدكتور صروف لا عدمته

ان اشتغالي السنين الطويلة في درس النحو واللغة وتدريسهما يسوّغ لي ان اعرض المواد الآتية على انظاركم وأنظار المفكرين في هذه المسائل والمشتغلين بها لعل فيها ما يلفت النظر من جديد الى هذه المباحث التي يجب ان يُنظَر فيها كما ينظر الى سائر الابحاث الادبية والاجتماعية في الوقت الحاضر اي نظراً مبنياً على قواعد راهنة يتفق فيها العقل والنقل معاً ويُطَّرَح فيها كل رأي ليس فيه ما يقبله العقل بوجه من الوجوه المنطيقية المقبولة لدى اولي الفكرة والنظر الصحيح. وحسبي فيما اكتبه الآن ان انبه به خواطر ادبائنا وعلمائنا الاعلام المتحفزة لمثل هذه المسائل الى ملاحقة هذه الابحاث وايضاح ما غمض منها ولهم اجر المحقق المستقصي ولي اجر المنبّه المبتدي. وغاية ما أؤمله ان لا اكون قد ضللت السبيل المؤدي الى نفض هذه المفازة البعيدة الارجاء والغامضة معاً والله الموفق الى الصواب

﴿ المادة الاولى ﴾ كل ما عدل عنه من المسائل الاعرابية لغرض ما كالاستثقال مثلاً او خلافه فالعدول جواز لا وجوب . والرجوع الى المعدول عنه لاقامة وزن او لحسن رصف مثلا جائز مطلقاً وكذلك اذا لم يكن الثقل على معظمه

مثلاً المنقوص من الاسماء المعربة كالقاضي والماشي تقدر عليه كل الحركات مطلقاً للخفة ولاسيما الضمة والكسرة فاذا احتيج اليها اي الى الحركة او لم يكن الثقل على معظمه عادوا الى الاصل قال بعضهم

ولو ان واش باليمامة داره ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا

وقال آخر

يا قاضي الحب اتئد في قتلتي فالخط زور والشهود سكارى

قدر الاول الحركة على « واش » تخفيفاً واقامة للوزن وأظهرها الثاني على «قاضي» للحاجة اليها . ويجوز له اظهارها ايضاً من غير حاجة لان الثقل ليس على اشده كما لو كانت الحركة ضمة او كسرة فان الذوق يأبى الرجوع اليها حينئذ من غير ما حاجة

وكذلك الاسماء غير المنصرفة فانها تجر بالفتحة ولا تنون للثقل فاذا احتيج الى الحركة

والتنوين كان للمحتاج ان يرجع الى الاصل قال امرؤ القيس

ولما دخلت الخدر خدر عنيزةٍ فقالت لك الويلات انك مرجلي

احتاج الى التنوين فصرف ونون

وجاء في أفصح كلام عربي منثور نقل الينا تنوين «سلاسل» لغير ما حاجة لان انتقل الخصوصية في اللفظة يدركها الذوق ليس هو على اشده. ولو ترك قارىء التنوين في الآية لاختل ايضاً حسن الرصف اختلالاً شديداً كما لا يخفى على ذي ذوق

وكما جاز الرجوع الى التنوين في الاعلام غير المنصرفة للحاجة او للخفة جاز في المنصرفة منها ترك التنوين للغرض نفسه قال بعضهم

ادور على رضاك ولا اراه كأني طالب لسعيد مثلا

﴿ المادة الثانية ﴾ حرف المد المتطرف كالياء في قاضي وساعي ويقضي وكالالف في فتى وأفتى ويسعى وكالواو في يغزو هو عبارة عن حركة مشبعة فاذا جاء بعده ساكن من تنوين او ال تعريف تُرِكَ الاشباع كقولهم فتى ولا كمالك وفتى الفتيان وقاضي القضاة . ويقضي الله بما يشاء . وكقولك كانوا وهم في الجاهلية تغزو القبيلة اختها . كل ذلك يحذف فيه حرف المد لفظاً لا خطاً . هذا هو الاصل وترك هذا الاصل مع التنوين في مثل قاض دون فتى وكذلك مع الجازم في الفعل المجزوم كلم يقض الدين الذي عليه لا وجه له ولا مسوّغ . وتعليل النحاة ان الجازم لما لم يجد الحركة في آخر الفعل اخذ حرف العلة الشبيه بها ، تعليل لا منطق فيه اصلا . وبقاء هـذا التعليل معمولا به عندنا الى اليوم وصمة في منطقنا لا يمحوها الا محو اثره من مكتوباتنا المستجدة. والذي اراه هو ان نكتب المجزوم والمرفوع في مثل — لم يرى الراون — ولا يرى الراون — بصورة واحـدة اي باثبات حرف العلة خطاً في الحالتين والا فالحذف لفظاً وخطاً اولى فيهما لاشتراكهما في العلة الواحدة وغاية ما نتساهل فيه ان يبقى الاسم القديم على حاله في المشهورات المعروفة لدى الخاص والعـام ولا أرى هذه الميزة الا لما رسم في المصحف . وأما ما سواه من الرسوم القديمة التي توبعوا فيها فأرى ان لكل رأيه اي ان يبقى على الخطأ في الرسم او يرجع فيه الى الاصل كما بيناه

﴿ المادة الثالثة ﴾ كل ما هو متعارف اعراباً في لغة مشهورة كلغة تميم مثلاً او لغة الحجاز او تهامة او نجد فلكل ان يجري على ما يعرفه من هذه اللغات فتقول « ما قال المحب حراماً او حرامٌ » و « ليس الطيب الا المسكَ او المسكُ » بالاعمال او الاهمال . وقد يدخل تحت هذه المادة الجوازم والنواصب فانه عند الحاجة يجوز اهمالها كما يجوز إعمالها

وهنا اقول ان كل لغة في الاعراب جاءت في المصحف في احدى القراآت المعتبرة يجوز القياس عليها اطراداً في كل الباب ولا سيما عند الحاجة. ومن ذلك الوقف على آخر المضارع في الدرج فان القراءة وردت فيه وعليها قول الشاعر الصحابي « كما ارجع »

اني امرؤ عاهدني خليلي الا أقيم الدهر في الكبول

أضربْ بسيف الله والرسول

فانه وقف على المضارع في الدرج فترك علامة الاعراب ، ولما كان الشاعر من صميم العرب وفصحائهم وفوق ذلك وافق في شعره ما جاء في المصحف كان لنا أن نتابعه في كل صيغة مضارع حيثما جاءت ولاسيما اذا كان في الوقف حسن رصف أو اقامة وزن . وأزيد فأقول ان الوقف هو الاصل وعلامة الاعراب عارضة وكان يجاء بها ابتداء لاقامة الوزن في الشعر او للغنة وما اليها ثم اصبحت يُؤتَى بها تسهيلا للفهم. والعارض لا يعدل اليه عدولاً وجوبياً الا لعلته التي اوجبته فأرجو متأملا أن يتأمل ولا يستهويه قول أعراب عن اللغة لتقدم زمانهم ليس الا

استطراد

يخال الي ان هنا مناسبة بين ما ذكرته وبين ما جاء للامام السيوطي في مزهره المشهور نقلاً عن ابي زيد احد الذين نقلت الينا اللغة عن روايانهم قال (١) طفت في عليا هوازن وهذيل اسألهم عن هذا الحرف وهو كل فعل ثلاثي مفتوح العين وليس ثانيه وثالثه من حروف الحلق ولا من الحرف الهاوي ، بالضم هو في المضارع ام بالكسر ، فلم أرهم يفرقون بين الحركتين بل يافظ لافظهم كما يتهيأ له فيقولون ضرب يضرب ونفر ينفر ونصر ينصر بالضم او بالكسر اه . وأنا اعجب من بعضهم على علمهم واتساع مطالعاتهم كيف يضيقون على انفسهم وعلى غيرهم في هذه الحركة فينكرون على من يقول يضرب بالضم او ينصر بالكسر اشد النكير كأنه قال ما يقرب من الكفر

﴿ المادة الرابعة ﴾ في الالفاظ المشتقة ما وافق القياس المشهور والمتعارف هو أولى بالاستعمال من الجائز فيه مثاله

اسم المفعول يأتي من كل فعل ثلاثي متعد على وزن مفعول الا انه من الاجوف قد تترك واوه للخفة فتنقلب صورة مفعول الى فعول او فعيل واليك بيان ذلك

---

(١) نقلت هذا عن ذاكرتي وأخاف ان تكون خانتني في نقل النص بحرفه فليراجع المزهر شاكر وله الفضل

تقول من صان يصون مصوون بالاتمام على الاصل ومصون بالنقص وواضح ان لفظ مصون قريب في السمع من لفظ مصوون وفي الوقت نفسه هو أسهل لفظاً منه على اللسان وأشهى في السمع ولهذا يعدل اليه دون الاصل . وقد بَيَّنَّا فيما مر ان كلما عدل فيه عن الاصل للخفة يجوز الرجوع فيه الى الاصل عند الحاجة او اذا لم يكن الثقل على اشده

مديون ام مدين

وتقول من الاجوف الياءي باع يبيع مبيوع فتركوا لفظ مبيوع الى مبيع ولا يتم ذلك الا بقلب الضمة كسرة بدلا — والضمة والكسرة تتبدل احداهما من الاخرى بكثرة — ثم بقلب الواو ياء تبعاً لقلب الضمة كسرة ثانياً فيصير اللفظ الى مَبْيِيع وهذا يقلب الى مَبِيع ولعل لفظ مبيع اخف شيئاً من لفظ مبيوع كما ان لفظ مصون اخف شيئاً من لفظ مصوون. ولأن اللفظين يردان كثيراً على الالسنة والفرق بينهما في الخفة ليس على اشده جاء في الخيار من غير ما حاجة استعمال الصورتين. فقالوا مصوون ومصون ومبيع ومبيوع لكن يقال بالاجمال ان الاجوف الياءي يكثر فيه الاتمام على الالسنة ويكثر في الواوي النقص مع بقاء الواو او قلبها ياء فنقول من دان يدين مديون بالاتمام فانه اكثر دوراناً على الالسنة قديماً وحديثاً . الا ان بعض الادباء او معظمهم قد عدلوا مؤخراً عن استعمال مديون الى استعمال مدين ولم يحفلوا بقوانين البلاغة التي توجب اختيار المتعارف والمألوف دون غيره . ومع ان هؤلاء الادباء قد اخطأوا الاختيار في استعمالهم مدين دون مديون « على ما أرى » فيحق لهم ان يعتمدوا على ذوقهم في غيره فليس كل «مفعول» من اليائي يفضل فيه الاتمام ولا كل «مفعول» من الواوي يستحسن فيه النقص فان لفاء الفعل ولامه دخلاً كبيراً في ترجيح اختيار احدى الصورتين دون اختها لحسن وقعها في السمع او لسهولة التلفظ بها على اللسان

مظاهرة ام تظاهرة

رأيت كثيرين منذ السنة التي مضت يعدلون الى تظاهرة بدلا من مظاهرة الشائعة والمشهورة في الاستعمال ولا أرى وجهاً لهذا العدول وبيانه :

تقول ظاهر زيد عمراً عاونه فتظاهرا أي تعاونا كما تقول شارك زيد عمراً فتشاركا وتقول ظاهر القوم بعضهم بعضاً فتظاهروا اي تعاونوا كما تقول شارك القوم بعضهم بعضاً فتشاركوا ولا تقول تظاهر القوم بعضهم بعضاً كما لا تقول تشارك القوم بعضهم بعضاً .

و نقول اعجبني مظاهرة القوم بعضهم بعضاً ومشاركتهم بعضهم بعضاً تبعاً لفعليهما ويستغنى ايضاً في المثالين عن ذكر « بعضهم بعضاً » ولا نقول اعجبني تظاهرة القوم ولا تشاركتهم بدون اتباع المثالين بقولنا « بعضهم بعضاً او بعضهم لبعض » لان المظاهرة كفعلها خاصة بالتعاون فيستغنى معها بالاضافة عن القيد. وأما التظاهرة فاذا لم تقيد احتملت كفعلها معنى التعاون او التدابر لان قولنا تظاهر القوم بالاطلاق اي بدون قيد يجوز فيه فهم معنى المعاونة ومعنى التدابر والمقاطعة فلا بد اذن من القرينة لتعيين معنى المعاونة كأن نقول تظاهر القوم على عدوهم بخلاف المظاهرة فانها خاصة بالمعاونة مطلقاً فلا تحتاج الى ذكر القرينة

وبناء على كل ما مر ارى انه يجوز استعمال مظاهرة مطلقاً لعدم الخطاء في استعمالها ان من جهة اللفظ او من جهة المعنى وأما تظاهرة فلا يجوز استعمالها اصلاً للخطأ الفكري الذي قد لا نفطن له فيسرع مع الغفلة عنه الى تجويز ما لا يجوز الا اذا نحتنا اللفظ عما هو موضوع له احتياطاً. وفوق كل ذي علم عليم

مرسح ام مسرح

وما اراه يقرب من باب مظاهرة وتظاهرة ما ذاع مؤخراً من استعمال مسرح بدلا من مرسح واستعمال كلا اللفظين للمعنى المراد به اليوم هو من باب النقل المبني على المجاز اي استعمال الاصل فيما هو ملابس له او فيما هو شبيه به فلننظر في اللفظين ايهما اولى من صاحبه في المعنى الذي نقل اليه

ان لفظ مرسح معروف الاستعمال في الشام كلها بمعنى الفسحة الواسعة في القرية يجتمع فيها الناس ايام افراحهم وأعيادهم ليلاً او نهاراً فيلعب اللاعبون ويرقص الراقصون ويتبارى المتبارون حتى وتمثل الممثلون في هذه الفسحة ويجلس غيرهم حواليها من كل الجهات او من اكثرها يتفرجون وقد يكون في القرية عدة فسح كعدد الحارات تقام فيها هذه المراسح (١). والفرق بينها وبين مايسميه الادباء الآن بمسارح التمثيل (عدولاً عن مراسح) انما هو في ان المرسح القديم فسحة من الارض لا بناء عليها والمسرح الجديد عليه بناء . واذا راجعنا تاريخ هذه المراسح او (المسارح) الى اول نشأتها عند اليونان رأيناها كالمراسح الباقية في اغلب قرانا الشامية الى اليوم . والمشابهة ظاهرة كل الظهور بين الحالة الاولى للمرسح والحالة الثانية التي نقل اليها وكذلك الغرض منها . اذن فنقل استعمال لفظ

---

(١) المرسح في الاصل للفسحة اي المكان ويجوز استعماله لما يقع فيه لا نه من ملابساته التي تدرك بادراكه

المرسح الى صورته المستجدة لا غبار عليه — الا ان يرجع الى الحصن الحصين لبعضهم — اعني « لم يرد » او لم ينقل في معاجم اللغة

وهنا نسأل هل نقل لفظ مسرح في المعاجم لهذا المعنى او لشبيه به. الجواب: لا اظن ان منصفاً يجيب بالايجاب عن هذا السؤال. اذن فلنرجع الى اصل معنى الفعل المشتق منه لفظ المسرح

جاء في محيط المحيط سرح المال يسرح سام أي رعى بنفسه. وسرح الراعي المواشي سرحاً اسامها اي ارسلها ترعى. يتعدى ولا يتعدى. وسرح الرجل «سلح». وبوله انفجر. وما في صدره اخرجه وفلاناً ارسله وسرح الراعي المواشي اسامها . والسارح اسم فاعل والماشية مونثهُ سارحة

وأنت ترى ان ليس في معاني الفعل ما ينطبق بل ولا يناسب ان ينطبق على المعنى المشتقة له هذه الصيغة اذن فلكي يصح استعمال المشتق يجب ان نستعمل الفعل في معنى لم يرد له استعمال اصلاً فبالاولى أن يكون المعنى المراد لمشتقهِ لم يرد ايضاً او لم ينقل فهو اذن ولفظة مرسح سواء من هذا القبيل اي ان كلاً منها « لم يرد » لكن لمرسح قدمية وشيوع ليستا لمسرح فضلاً عن ان لفظ مرسح خاص ولفظ مسرح مشترك بين معان كثيرة وبعضها يؤنف من تصورها اذا احضرها الذهن امامه

وأزيد فأقول ان لفظ مرسح من الاوزان العربية القحة وله في الاستعمال مئات السنين شائعاً عاماً في قطر عربي كان ولا يزال جزءا من صميم البلاد العربية منذ اقدم الايام الى اليوم بل ارجح انه معروف ايضاً في مصر والعراق بالمعنى الشائع والمعروف في طول بلاد الشام وعرضها

وهذا القدر يكفيني الآن. ولعلي أعود الى متابعة الموضوع اذا مكنتني صحتي ورأيت عند الادباء ومحبي اللغة اهتماماً يزيد من رغبتي في الكتابة والسلام

الدكتور صروف معلماً

أنا لا أطمع ان أباري ولا ان أقارب ما كتبه الافاضل في سيرة أستاذي وخلقه ومكانته لغوياً وأديباً . ولكني أحد تلاميذه ، وقد عرفته في صباي معلماً في برج صافيتا وعرفته في فجر شبابي أستاذاً ومعلماً في الكلية الاميركانية ببيروت ثم في المقتطف في تلك الكلية وأخيراً عرفته في مصر في المقتطف أستاذاً معلماً ثم دكتوراً معلماً. فمازلتُ اذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ الى ان توفاه الله تلميذاً محبًّا لهذا الاستاذ الخالد ما خلد علمه وأدبه وفضله

وهيهات ان يمحى خلوده الا بامحاء عمراننا الاجتماعي عن آخره بجائحة سماوية تمحو الانسان وأثر الانسان عن هذه الكرة الارضية التي ولد ودرج وترعرع وشبَّ فيها العقل البشري حتى وصل الى الدرجة التي وصل اليها بأحد ابنائها الشرقيين المرحوم الدكتور يعقوب صروف

كان أحلى من شهد العسل في فمي ان أخاطبه شفاهاً وعلى صفحات المقتطف يا أستاذي العزيز. وأنا أطمع ان يقبل ادعائي الآن اني كنت أحبَّ تلامذته له — ولا أجسر ان أقول اليه — بظاهر بياني او حجتي الآتية وهي: انه كان أحبَّ معلمي اليَّ في برج صافيتا ولم أكن قد أتممت الحادية عشرة من عمري . ثم كان معلمي في الكلية الاميركانية ثم معلمي في المقتطف في الكلية وفي مصر كما أشرت سابقاً . ولا أظن ان تلميذاً آخر غيري عرفه معلماً له في الاحوال الثلاثة التي عرفته بها وفي جميعها . كان عندي هو هو ، المعلم الصالح الذي تعطر النفس محبته وتملؤها « في حضرته وغيبته » سلاماً واطمئناناً فضلا عن الشعور الباطن انه لها موئلا وملاذاً . واذا كنت أنا أعرفهم به فأنا أحبهم له

ما نسيتُ ولا أنسى عدة مشاهد وعبارات شاهدتها وسمعتها منذ ثمان وخمسين سنة لان فيها صورة المعلم يعقوب صروف واعجابي بالمعلم يعقوب صروف

***

اني لا أنسى صورة بيت الشيخ اسبر ضومط في يوم جميل من أجمل أيام الصيف في برج صافيتا — السماء زرقاء لا أثر فيها لقزعة من سحاب ولا لاغبرار ما حتى فوق مياه البحر في الافق البعيد . حائط الدار من الحجر الازرق المختلف الاقدار والاشكال

وفوقه من بعض جهاته ما يحميه من الشوك دون من يحاول الصعود عليه . باب البيت من الخشب السميك السنديان او الجوز — لا أعلم أيهما كان - الا ان ألواحه مختلفة السمك حتى في اللوح الواحد وأظنها لم يُشَذِّبها منشار نشار حاذق ولا أزالت خشونتها فارة نجار ماهر . وعليه سكرة ضخمة من الخشب تدخل في طاقة (ثقب) غير نافذة في صدغ الحائط مسامير المشدودة بها الالواح الى العارضتين العليا والسفلى من خشب يسمونها خوابير. وعن يمين الباب الى جهة الجنوب مصطبة تعلو شيئاً قليلاً عن الدار مسقوفة بأغصان شجر الغار وجداراها الجنوبي والغربي قائمان على قوائم مما يُعرَف هناك باسم «قطش» عليها عوارض من مثلها ومغطى على شبه المربعات بين القوائم والعوارض بغرف من أغصان البلُّوط والسنديان والريحان ومما حضر خلاف ما ذكرنا

قبال هذه الخيمة في صباح أحد كما أظن الآن أتصوَّر ولداً ينظر الى المعلم يعقوب يكلم المعلم الآخر واسمه المعلم ابراهيم وهو باسم الوجه ضاحك العينين . ان صورة المعلم يعقوب أتخيلها الآن بكل وضوح بخلاف صورة معلمي الآخر وكان سبق حضوره الى برج صافيتا حضور المعلم يعقوب بأشهر وبقي بعده في المدرسة يعلّمنا عدة أشهر ولكني لا أذكر له الآن صورة قبل صورته هذه — اي التي مع صورة المعلم يعقوب — ولا بعدها، وفي الوقت نفسه هي صورة مضطربة في ذهني لا تستقرُّ على حال

بعد هذا اليوم ببضعة أيام وفي مثله من الجمال ونقاوة الجو أتصوَّر ولداً راجعاً من جهة ضهر بيت سمعان حيث كانت المدرسة وحيث بيت الشيخ اسبر ضومط على مقربة منها وهو يثب على الطريق وثباً ولا أزال أشعر بهزة سرور لسروره كلما تخيلت صورته هذه: وسبب سروره كان ان المعلم يعقوب علَّمهُ أسماء الحروف الهجائية بالافرنجي ولفظها بما يقابلها من الحروف الهجائية العربية . فما ترك عماً ولا خالاً ولا خالة ولا ابن عم او خال بل ما ترك رفيقاً من أترابه رآه ذلك اليوم الا وأخبره بذلك

مرت أيام عطلة المدرسة الكلية الصيفية ورجع المعلم يعقوب في آخرها ليتم سنته الاخيرة فيها وبقي التلميذ المتوهم في نفسه انه تلميذه يحلم به المرة بعد المرة ويقوم في الصباح باكراً يقصُّ حلمه على أمه ثم على كل واحد من أهل الدار وعلى غيرهم من الجيران حتى كثيراً ما أضجر أمه فاضطر ان يسكت خيفة من ضرب مكنستها — انها كانت تضربهُ أحياناً بالمكنسة لتفثأ من غيظها او غضبها على ثرثرته وفي الوقت نفسه لا تؤذيه وقد لا توجعه أحياناً « وان أوهمته انها توهمت ذلك » ولم تكن تحفل بتطير المتطيرين بالضرب بالمكنسة — سمعت مرة جارتنا امرأة موسى برهوم تقول لها : أما هو حرام عليك

تضربيه بالمكنسة — فأجابتها أمي : « يا ويلي أخاف يا مرة عمي اذاضربته بغير المكنسة أذيه او على الاقل وجعو : وما لي قلب أسمعو يبكي وهوي الله يرضى عليه اذا حس على شيء ما ببرضيني ما بيعملو »

السلام عليكم يا أستاذي العزيز ورحمك الله فانك انت أنت الذي تثير أشجاني « وما أحلى أشجاننا هذه» بتذكري ما أذكره الآن من محبة الامّ الفاضلة واشفاقها ولولاك لكانت هذه التذكارات امحّت من خيالي ولكنها تخلدت بالتفافها حول صورتك الخالدة التي كانت في ذهني والتي سيخلدها تدوينها في مقتطفك المحبوب الخالد الى ما شاء الله

بعد سنة من هذه التذكارات التي مرت سمحت أم جبر لابنها وحيدها ان يفارقها الى مدرسة عبيه الاميركانية رغم انكار كل نساء برج صافيتا عليها ان تسمح له يتغرب عنها الى قرية تبعد ثلاثة أيام عن قريتها وأرجح ان أكثر ما دعاها الى سماحها لابنها بالذهاب الى مدرسة عبيه — التي كانت في ذلك الزمان أبعد من أبعد البلدان النائية التي يتغرب اليها أبناء تلك القرية اليوم — هو إعجابها بالمعلم يعقوب وتهذيبه

هناك بدأت أستمع عن معلمي وأعرف عنه ما لم أكن عرفته من قبل فزادني ما عرفته محبة واحتراماً فوق ما كان له قبلاً مراراً. وآخر الامر وصلت الى ما كنت بدأت أحلم به وأتشوّف اليه في السنة الثانية من اقامتي في مدرسة عبيه الاميركانية اي الانتقال منها الى المدرسة الكلية في بيروت المدرسة التي أخذ منها معلمي علمه وكان قد انطبع في ذهني ان لا معلم فوقه « ولم يتغير هذا المطبوع بعد »

في سنة ١٨٧٢ في شهر اكتوبر تمت لي أمنيتي بانتقالي الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت بعناية المرحوم الدكتور صموئيل جسب رجل الفضل والنبل وكرم الاخلاق نفساً وأرومة وبعناية زوجته الفاضلة رحمها الله رحمة واسعة فانها كانت في فضلها وطيب عنصرها خليقة بالمرحوم زوجها وأكثر منه عناية واهتماماً بي وبانتقالي الى الكلية

وفي سنة ١٨٧٣ تحققت لي أحلامي الذهبية في الحادية عشرة فاني رأيت فيها المعلم يعقوب أستاذاً في الكلية الاميركانية ومعلمي فعلاً لا توهماً حلواً كان أولاً أضحوكة صبيانية التفكه بها ولاسيما بعد ان مرت السنون عليها

بقيت ثلاث سنوات تلميذاً لأستاذي ومعلمي في الكلية لا أشكو من شيء الا انه كان كأنما هو يغيرني بأن تلامذة الصفوف المتقدمة كانوا — أخذاً بظاهر كثرة ترددهم على غرفته ورفع الكلفة في معاشرته ومرافقته ان في داخل صحن المدرسة او خارجاً عنه — اكثر قرباً اليه مني. ولكني لما صرت منتهياً اي في صف السنة الرابعة فهمت ما لم أكن

افهمه وأنا ابن السنة الثانية لاني وجدت نفسي حينئذ في الحالة التي كان عليها معه أبناء ذلك الصف الذين مروا عليه قبلي

تركت المدرسة سنة ١٨٧٦ ولكني بقيت تلميذاً له لم تفارقني عنايته فأرسل اني الى برج صافيتا أول عدد ظهر من المقتطف فانتقلت من التلمذة بواسطة المدرسة الى التلمذة بواسطة المقتطف وما زلت تلميذاً له فيه الى شهر يوليو الماضي سنة ١٩٢٧ وعنه أقول : اني ما قرأت له نقداً ولا جواباً عن سؤال من كل السؤالات المختلفة في كل ١٠ كان يخطر على بال سائل من مختلف الاقطار العربية وعلى اختلاف درجة علمهم وأدبهم في معظم الخمسين سنة المارة الا رأيت نفسي تبعاً له لا اقول الا ما قال في كل ما كنت درسته درساً خاصاً وأستفيد من علمه كما يستفيد التلميذ في كل مسألة كانت خارجة عن دائرة بحثي : وان بالنظر الى تفاصيلها : كأكثر مسائل العلوم الطبيعية بل في نفس مسائل اللغة — المسائل التي كنت وجهت اليها معظم أوقاتي مؤخراً — وفي كل ما يترك للعقل مدى للجولان فيها وابداء رأيه من غير ما ضرورة للتقييد بالمنقول عن بصريين او كوفيين مثلاً ، كانت أحكامه ببداهة فطرية كأحكام أكبر اليابانيين او الفيلولوجيين المعاصرين

لا يزال عندي ذخيرة من هذا الاستاذ العزيز منذ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ أتعوذ بها كلما دجا ليل مظلمة او تباعد عني قلبي مؤمل — هذه التعويذة هي كتاب من المرحوم — حفظ بعناية لم أتعنَّ لها — يملأ صفحتين ونصف صفحة بخطه الدقيق الواضح « كان » كأخلاقه بحيث لا يشقُّ على بصر ولا تنبو عنه عين . أحب ان أنقل من هذا الكتاب او التعويذة ما يدل على « معلمية » هذا المعلم وبعد نظره أولاً . وعلى حبه لتلامذته سواء كانوا في المدرسة الصغرى ام كانوا في مدرسة المجتمع الكبرى ثانياً . وعلى انه يعرف الفضل ويعترف به لذويه ومستحقيه ثالثاً . قال رحمه الله :

« ولكن مصيبتنا كبرى وخرقنا أوسع من ان يلئمه واحد او اثنان وحسبك دليلاً ان الصين والهند وكل بلدان المشرق تئن الآن من وطأة الغربيين ولا مناص لها او ينقلب الدهر فينخر أرومتهم سوس الادعاء والعجرفة ويصفو للمشارقة فيرتعون في رياض العلم والعمارة وهذا ما نحن ساعون فيه جهدنا وباذلون دونه النفس والنفيس وانا وان لم ننظر بأعيننا تملُّص المشرق من عبودية المغرب الا انا نراه بعين الايمان عن بعد ونحييه — وقال — « وكان فيه ولا يزال درس مهم لي ولغيري ايضاً » — وأبو ... ليس من الاغبياء ولا أظنه يمنعك سؤلك اذا وقع عليه في حينه . وان فعل . فالعز عند رسوم الاينق الذلل

« وفي الارض منآى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلى متحوَّلُ

وما أنت أول من اتبع نهاه وعصى هواه فأكثر الآن من الدنانير فهي تسهل كل امر عسير » . وقال ايضاً يوصيني بأحد تلاميذه « أرأيت شاباً اسمه.... هاجر حديثاً الى القطر المصري وهل تعرف شيئاً من امره ؟ اذا رأيته وقدرت ان تساعده بيسير من النقود اذا احتاج فما تفعله معه تفعله معي وأنا أوفيك اذا عجز » وقال في ختام الكتاب: اهدِ سلامنا واحترامنا لكل الاصحاب والمعارف ولا سيما لصاحب المحروسة وصاحبي الاهرام الفاضلين . قد ساءنا جداً ما جرى للاهرام ولكن :

لولا اضطرام النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العودِ

فان صاحبي الاهرام العظيمين لو قدرهما السوريون قدرهما لصاغوا لهما تيجاناً من الذهب . هذا ولك مني ألف سلام أخوك يعقوب

وأنا اقول وأفتخر بقولي انه معلمي كان ولا يزال وهذا الكتاب يذكرني بغيره من الكُتُب التي كان يرسلها اليّ الى طرابلس فحرّكتني الى المطالعة وشجعتني على الكتابة. بل هي نبهتني الى ما كنت غفلت عنه من اهمية لغة اجنبية لزيادة معارفي : وكنت قد اطرحتُ هذه الفكرة جانباً ورميت بمعرفتي القليلة باللغة الانجليزية عرض الحائط . ولكني لما انتقلت من مدرسة حمص الاميركانية الى مدرسة طرابلس في اواخر فبراير (شباط) سنة ١٨٧٧ وجدتُ ان لاغنى لي في توسيع معارفي عن درس هذه اللغة اقله لاستطيع فهم لغة العلم والفلسفة المودعة في مؤلفاتها لا لاخطب ولا لا كتب فيها : وكان المنبّه لي الى هذه الحقيقة المقتطف وبيانه

كنت في طرابلس اراجع المقتطف فلا ادع واردة ولا شاردة تفوتني فيه وأنعم درس كل ما يكتب فيه . ولكني وجدت ان منزلتي في عيون اهل الادب والفضل من وجهاء الطرابلسيين الكرام « ووجهاء طرابلس هم ادباؤها وهم علماؤها ايضاً » تقتضي ان تزيد معرفتي عما تحتويه مقالات المقتطف ولا يتمُّ لي تحقيق ذلك الا ان ازيد معارفي الضعيفة جداً في اللغة الانكليزية فأقبلتُ على ذلك بكل ما فيَّ من نشاط ورغبة سنة كاملة — اخبط في تلك اللغة لنفسي بنفسي خبط عشواء وأفهم معاني الفاظها بعيني لا بأذني وسمعي — قبل ان صرت افهم ما في تلك المؤلفات من العلم والحكمة التي كان قد بدا يروج سوقها حينئذ وكان المقتطف اول من بدا يروّجه في مجلة علمية في معظم البلدان العربية ولا سيما سورية

اذكر اني بعد ذلك بمدة كتبت للمرحوم استاذي مقالة في تفسير الاحلام فجاءني كتابه يقول تنشيطاً لي — (وحقاً كان الكتاب اعظم منشط لي) — ما اخجل من

دعواي اذا ذكرت معناه — وكافأني على تلك المقالة بأن قدّمها الى المجمع العلمي العربي الاول في بيروت وقبلتُ فيه لاجلها عضواً مراسلا وقد فقدت هذه المقالة وأسفاه عليها وشُغِلت عن اعادة كتابتها الى ان لم اعد استطيع ذلك

وقد كتبت مقالة اخرى موضوعها التعب وسوء الاخلاق ففُقِدت ايضاً وكان نصيبها من مديحه نصيب مقالة الاحلام . أما تأثير الكتابين فيَّ فأترك تقدير ذلك لمن يطلع على مقالتي هذه ومهما قدره فقدر فأنا ما نسيت ولا انسى حسن اثرهما . ما اعظم تأثير المعلم الصالح في نفوس تلاميذه، وما اعظم ما يستفيدونه من قدوته ولعله اضعاف ما يستفيدونه من علمه

انا لم اقصد بمقالتي هذه — مادح نفسه يهديك السلام — انما انا مصدق بها على ما كتبه الافاضل في المقتطف ومصادق عليه بما كتبته عن تذكاراتي في صبوتي وشبابي وأيام كهولتي ومدة تسع سنين ايضاً بعد الستين من عمري

مالي وللنصح لقومي باختيار المعلم الصالح ولا سيما في المدارس الابتدائية اولا ثم المعلم الصالح الاديب في المدارس العالية ثم المعلم الصالح العالم في الجامعات وما يقاربها من الكليات التي تُعِدُّ ذوي المواهب للاختصاص بما ولدوا ويسروا له

يكفيني اني وفيت ديناً عليَّ بشكري المرحوم الدائن وباعترافي بفضله ودينه عليَّ مما لم استطع وفاءه في حياته فليرحمك الله يا استاذي العزيز وليرحم كلَّ المعلمين امثالك من الذين كانوا قبلك وسيكونون من بعدك آمين ثم آمين

اميركي واميركاني
بحث في النسبة

— ١ —

أستاذي العزيز الدكتور صروف

خطر في بال تلميذي وصديقي العزيز ن . ش وهو ولله الحمد من شيوخ الادباء وأعلام الكتاب والمعرّبين ان يسابقنا نحن المشتغلين ببعض علوم اللغة

فسلكت معهُ مسلك الثقة المطّلع على مبادي الفيلولوجيا ومباحث الفيلولوجيين أو مسلك المتخصصين للابحاث الصرفية على شاكلة المجتهدين لا المتابعين ونسيتُ أنهُ متخصص بالادب والبلاغة والتعريب وأن هذا التخصص لم يترك لهُ مجالاً نظيري لمتابعة هذه الابحاث التي لاتهمّ الجمهور حتى ولا معظم الادباء

الاّ أني حين فطنتُ الى ما غاب عني ابتداء كتبت لهُ أني أترك لهُ الكلمة الاخيرة وتركت لهُ فعلاً تلك الكلمة . وكنت أظن أن الأمر واضح لا يحتاج فيهِ الى كثير من عمق البحث وبعد النظر ليعلم أن النسبة الى أميركان أميركانيّ لا يجوز فيها غير ذلك

مرّت المباحثة أو المناقشة على نظر بعضهم فأراد أن يستجلي الحكم القطعيّ فيها فكتب الى المقتطف محل ثقتنا يستفتيهِ . وكان من جواب أستاذي الدكتور صروف ماكان من تفضيل أميركيّ على أميركاني . وشفع تفضيلهُ بالتعليل الفيلولوجيّ كما هي عادتهُ أن لايرمي الكلام على عواهنهِ . ولكنّ الامر التبس على أستاذي في هذه المرة وسببه ظاهر لان هذا البحث ليس من خصائصهِ وان كان يعرف من مبادىء الفيلولوجيا وقواعدها العامة ما لم يخطر على بال معظم معلمي الصرف الذين حفظوا أرجوزة الشيخ ناصيف أو شرح الشافية المطوّل غيباً ولا غرابة في ذلك

ومع احترامي الشديد الذي لا أشدّ منهُ لاستاذي مقروناً بمثلهِ من المحبة كتبت اليهِ ما محصلهُ أنّ ما لك يا أستاذي وللحكم في هذه المسألة . أنها خارجة عن دائرة اختصاصك وأنت أعلم الناس بما للتخصص من دقة النظر وما يترتب عليها من صحة الحكم في المسائل التي خصص لها كل أيام حياتهِ . احكم في فلسفة الاجتماع في مبادىء الكيميا الاولية عن آخرها وفلسفتها النظرية وتسمياتها الاصطلاحية ورجّح ما شئت أو أحكم في الوسطاء الروحانيين وعلل تعليلاتك العقلية الجميلة الراهنة فيهم وفي هؤلاء قراء الافكار المدجّلين وكاشفي أسرار الغيب من الحازين واشباههم من المشعوذين والمتنبئين . أحكم أحكامك في

كل ذلك بل في كل ما هو من باب ابحاثك الخاصة التي نطأطىء فيها رأسنا اجلالا لحكمك حالما نتثبت انهُ صدر منك حكم . ودع لي مثل هذه المسائل التافهة التي استحي اذا طبلت وزمرت لها . هذا مآل ما كتبتهُ الى استاذي لما لي عليهِ من دالة التلميذ المحب ولعلي تشددت في التلويم اكثر مما كان ينبغي ان اتشدد

واني على ما كان مني لنادم واني الى اوس بن لام لتائب

وهنا اتصدى لبيان ان تعليل استاذي الفيلولوجي في غير موضعهِ واليك ذلك

ان النسبة الى اميركا اذا حسبنا الألف في آخرها كالف صحراء وكيميا هي اميركاني او اميركاوي او اميركي باثبات الهمزة او بقلبها واواً او بحذفها وحذف الألف قبلها تخفيفاً. هذه الثلاث صور — والأخيرة منها على خلاف القياس — يجوز لك ان تعدل عن اختيارك للاخيرة منها بالخفة او بحسن وقعها في السمع او بالعلتين معاً كما اشار استاذي . وهنالك صورة رابعة جائزة في اميركا وهي ان تحسبها توهماً (ويهوّن لك هذا الحسبان ان اللفظة عم العجمي) من باب صنعاء وبهراء فتقول اميركاني كما قالوا صنعانيّ وبهرانيّ . من هذه الصور الاربع يجوز اختيار الاخضر والاوقع في السمع استحساناً على خلاف القاعدة . ولكنّ النسبة الى « اميركان » لا يجوز فيها الا صورة واحدة أعني اميركانيّ . وليس لهُ فيها للخيار أصلا

ومع أني كتبت الى أستاذي ما كتبت لم أشأ فتح الباب خيفةً من ملل القراء وحياء من اناس قدرت وجودهم لا يرون لي ان اطبل وأزمر في جنازة حامية والبيت مسألة تافهة باعتبار اثرها المادي العملي

والحق يقال ايضاً اني لم اكن اتصور ان يكون لما كتبهُ استاذي الأثر الذي رأيتهُ لهُ بعد ذلك اثراً ماديًّا عمليًّا . وما زلت اتصور ان المسألة تتذبذب بين اقلام الكتاب مدة ثم ترجع الى حكمها الواجب اي يفطن الأدباء الى ان النسبة الى اميركا غير النسبة الى اميركان . ولكن الأمر جاء على خلاف ما قدرتهُ واليكم البيان

ان اسم جامعتنا في اللغة الانكليزية هو The American University of Beirut واختير لها في العربية الجامعة الأميركانية في بيروت وحفرت الصورتان العربية والانكليزية على الزنك ووضع وفقاً لذلك ختم المدرسة الرسمي . لكن بعد ان ظهر افتاء استاذي مدعوماً بالتعليل الفيلولوجي الذي اشرت اليهِ ورأوا ثبات المقطم والمقتطف على استعمال اميركي بدلاً من اميركاني في كل مقام وردت فيهِ هذه النسبة وتابعهما (اعني المقتطف والمقطم) كثيرون بل مال الرأي العام بكليتهِ الى اختيار هذا الخطأ

احتراماً لظاهر حكم استاذي واحتراماً لمكانة المقتطف والمقطم (١) حمل التيار في جملة من حمل اعضاء عمدتنا اعني عمدة « الجامعة الاميركانية العمومية » في وجهتيه فاجتمعت تلك العمدة في احدى جلساتها الاسبوعية ودار فيها البحث في هذا الموضوع وحكم بأكثرية الأصوات انهُ يجب تغيير العبارة من الجامعة الاميركانية الى الجامعة الأميركية

وبناء على هذا القرار المأخوذ بأكثرية الأصوات صدر الأمر الى الخطاط ان يكتب على الرخامة الموضوعة على باب المدرسة — الجامعة الاميركية — فكتبت وحفرت ولم اشعر بها الاَّ وهي ترفع الى مكانها وعليها الاسم كما ذكرت اي الجامعة الاميركية

وبناء على ان لكلام استاذي هذا الأثر الشديد حتى يؤخذ بظاهر حكمه من غير روية ولا تريب رأيت الواجب العلمي يقتضي ان افتح هذا الباب مرة ثانية بعد ان كنت سددتهُ بيدي . وأفتحهُ احتراماً لهُ اي لأستاذي . ولا يخاف القراء اطالة الكلام بعد طول هذه المقدمة فاني اكتفي بالسؤالين الآتيين ومن يتأمل فيهما ويفكر عفواً في الجواب عنهما لا يحتاج فيما اظن الى شرح او برهان يحتاج الى مقدمات عقلية وفيلولوجية . والسؤالان هما :

السؤال الأول

(1) The America College.

(2) The American College.

اذا نقلنا الصورتين الانكليزيتين الى العربية بصورة مضاف ومضاف اليهِ قلنا في الاولى كلية اميركا . وفي الثانية كلية الاميركان . ثم حوّلنا التركيب الاضافيّ في الصورة الاولى الى تركيب تقييديّ اعني صفة وموصوف وقلنا فيهِ الكلية الاميركية فماذا نقول في تحويل التركيب الاضافيّ الى تركيب تقييديّ في الصورة الثانية ؟

السؤال الثاني

كيف ينسب الى الاسماء الآتية :

حمدان . نبهان . زيدان . عدنان . قحطان . ريدان . سعدن . يونان . سريان . افغان . يابان . جرمان . المان . بريطان . انكليكان . اميركان . سودان . رومان . ايران . عجمان . انسان . جثمان

وهنا اسأل من يصحّ ان يوجّه اليهِ السؤال : هل راجعت أيها السيد في نفسك او في كتاب من كتب الصرف فرأيت مسوّغاً يسوّغ ان تكون النسبة الى اميركان اميركيّ ؟ لا تخلط اميركا باميركان فأن النسبة الى الاسم الاول العلم أي اميركا قد يجوز فيها

---

(١) ليعتبر اهل العلم واصحاب الحيثيات المحترمة ما لآرائهم واقوالهم من التأثير في توليد الرأي العام وليتفكروا قبل ان يكتبوا حرفاً واحداً

استحساناً على خلاف القياس اميركيّ. وأما النسبة الى اميركان اسماً للجنس المراد به شعب الولايات المتحدة فلا يجوز فيه الاّ اميركانيّ كانكليكاني وروماني وجرماني والماني وسوداني وايراني وعجماني . ممن عنده نقل عن امام او عن كاتب درس باب النسبة ذوقاً أو تعلّماً أنهُ بوجه من الوجوه أو لعلة من العلل أن ينسب الى أحد الاسماء المذكورة أعلاه بحذف الالف والنون فليذكره

وفي الختام أقول

ان كثيرين يتابعون الرجال المشهورين فيعرفون الحق بهم . فهل لمثل هؤلاء المتابعين ان يعرفوا ماذا كان يقول المرحومان الشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الاسير. بل ماذا كان يقول المرحوم الدكتور فانديك والاستاذ الدكتور يعقوب صروف في النسبة الى أميركان

أقول لمثل هؤلاء انظروا الى اللوحة الكبيرة المعلّقة على باب بناية المطبعة الاميركانية في بيروت والى المقتطف في سنيه الاولى حينما ذكر الكلية الاميركانية فأنهُ لم يخطر لهُ قط حينئذٍ أن يقول الكلية الاميركية ولم يخطر في بال المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي الذي كان في بعض تلك السنين يفاتي المقتطف تفلية ليعثر على سقطة نحوية أو صرفية ليقيم أعظم النكير عليها فأنهُ مرّ على الكلية الاميركانية أو المدارس الاميركانية أو ما هو من هذا القبيل في مقالات الدكتور صروف ولم يتبس فيها ببنت شفة . فليعتبر المتابعون

أما ما استهوى أستاذي الدكتور صروف الى استعمال أميركيّ بدلاً من أميركانيّ والاولى أن أقول ان ما هوّن عليه أن لا يرفض استعمال أميركيّ في موضع أميركاني رفضاً باتاً فلهُ وجه لا يعلمهُ أستاذي وأعلمهُ أنا لانهُ من اختصاصي دونهُ . واذا اذن أستاذي فسمح لي أن أسوّد صفحات المقتطف ببياض البحث كهذه يظنها بعضهم تافهة ولكنها من أعلى المباحث البسيكولوجية سوّدتها في أحد أجزاء المقتطف الآتية

والمعذرة من القراء الكرام عما أطلتُ به من عذر والسلام

عود الى النسبة

— ٢ —

استاذي العزيز الدكتور صروف

هل تأذن لي في هذه المسألة ان اضع رأيي الى جنب رأيك حتى لا يحرم قراء المقتطف وجهتيْ نظر كل منهما تعتمد بالأكثر على سند عقلي فيولوجي وان اقتضى الأمر فعلى سند تاريخي اكثر مما على مجرد سند نقلي يرجع الى قال فلان وقال فلان من الذين تقدمونا لانهم تقدمونا . وبناء على اذنك استأذن القراء بعرض ما يأتي من التمهيدات الفيلولوجية المؤيدة او التي يمكن ان تتأيد بشواهد الواقع قديماً وحديثاً وأذكرها بغاية ما استطيعهُ من الاختصار وهي :

(اولاً) ان حروف العلة تتبدَّل بعضها من بعض اذا دعا الى ذلك داعٍ من الخفة وحسن اللفظ فتقلب الواو ياء وبالعكس وكلتاهما تقلبان الفاً وهمزةً وبالعكس

ومثل حروف العلة الحركات فانها تبدل بعضها من بعض فضلاً عن اختلاس المشبعة او اشباع المختلسة . وكل ذلك يجري بداهةً على اللسان . والعمدة فيهِ حسن الذوق وبداهة عفو الخاطر . والمختار عندي ان يبقى ما الف على الألسنة أو دُوِّن في كتب اللغة والأدب على ما الف فيهِ الا ان تعرض حاجة فيقاس كل على مثله وينظر بنظيره

(ثانياً) حروف العلة وحروف النون قريبة المخارج ولذلك فقد يقلب احدها نوناً ولا سيما الواو وهو معروف عند الفيلولوجيين ولا يخفى على من تنبه له عندنا والمتأمل يرى ان التنوين في « قاضٍ وواشٍ » هو من باب الابدال هذا . وكذلك « التنوين » في جوارٍ فان النحاة بقولهم ان ياء المنقوص من صيغة منتهى الجموع تحذف ويعوض عنها بالتنوين قد اعترفوا بالابدال ضمناً

ومن هذا القبيل تنوين الترنم فانهُ عبارة عن ابدال الحركة المشبعة وهي حرف المد نوناً وعلى عكسهِ لو تأمل متأملٌ اشباع الحركة في القافية فانه عبارة عن قلب التنوين حرف مد

وهنا اشير الى ما يقع على الألسنة من قولهم « لِسَّا ولسَّنْ . ولَمَّا ولَمَّنْ . ومانو وماهو » ولا يخف خافت من « الهاء » فانها اخت الهمزة ومعروفٌ ان وضع كل منهما

موضع صاحبتها لغة لبعضهم جرى عليها المتنبيء في قوله

لهنَّكِ اولى لائم بملامةٍ وأحوج ممَّن تعذلين الى العذلِ

وأما انقلاب الواو والياء همزة اذا وقعتا بعد الف فيكاد يكون مطرداً وقدفطن لهُ الصرفيون وقرروه في قواعد علمهم بل حسبهُ بعضهم واجباً في مثل قائل وبائع . ومما لا يجوز الغفلة عنهُ هو جواز مد المقصور وقصر الممدود فانهُ من قبيل الابدال او القلب . وأعود فأقول ان جميع ما اشرنا اليه او معظمه يرجع فيهِ الى البداهة وحسن الذوق لايختص بزمان دون زمان ولا هو مما يحلل لقوم ويحرم على آخرين

(ثالثاً) الواو والياء وبالأخص الياء في مثل عين ويوم فيها ثلاث لغات كانت هذه اللغات قديماً ولا تزال محفوظة الى اليوم وهي

(ا) اخلاص الفتح وهي لغة المتأدبين وعموم اهل الشوف والمتن من اقضية جبل لبنان وأخاف ان اشمل في هذا الحكم لغة جميع اللبنانيين

(ب) قلب الياء الفاً فتقول عان ويام وهي لغة معظم اهالي شمالي سوريا ومما يجب ملاحظتهُ انهم عند الأضافة الى الضمير ولا سيما « ياء » المتكلم يرجعون الى تحقيق الياء والواو

(ت) الامالة فيها وهي لغة دمشق وحمص وحماه وأهل فلسطين وشرقي الأردن اجمالاً ولغة مصر والعراقيين على ما ارجح

وأما الياء بعد الكسرة فالأكثر فيها تحقيق الكسر ولكنَّ بعضهم يميلونها كثيراً او قليلاً نحو الفتح اذا وقعت في المقطع الأخير نحو قاضي ونحو حليب وسليم ولا سيما اذا اتصلت بياء النسبة. ولا تزال هذه اللغة او اللهجة غالبة في مدينة زحلة وما جاورها وقد اشرت اليها لأنها تفسر لغة من قال في النسبة الى ثقيف ثقفي والى حنيفة حنفي والى عليّ وعدي علوي وعدوي فانهم فتحوا ما قبل الياء « وفقاً لهذه اللغة » فصارت الياء (وهي ساكنة) بعد فتحة فأمالوها الى الألف كما امالوا ياء «عين» ثم تركوا الاشباع

وارجح انهم اولاً حذفوا الألف في حنفي وثقفي وعلوي خطاً لا لفظاً كما حذفوها في « هذا وذلك » اسميْ اشارة وكما في سموي ومع الايام والتكرار اصبحوا يحذفونها لفظاً وخطاً

وهذه الجارية التي جرت في حنفي وثقفي وعلوي هي الآن تتطور في «سماوي وسموي» فان الاكثرين اصبحوا يكتبونها بدون الف .وحذاق الكتاب يضعون الفاً قصيرة فوق الميم بدلاً من الفتحة ويشيرون بها الى وجود الألف على ان كثيرين منا اصبحوا الآن

يقولون البركات السموية اي يحذفون الألف لفظاً وخطاً . وجاز لهم ذلك لان المعنى لا يلتبس على احد والذهن ايضاً لا يتوقف فيه حائراً ماذا يقدر . لكن لو قال قائلنا بركات سماوية (بألف اطول من العصا) كان في جانب الصواب والاصالة كما يكون من يقول

بكل قريشيٍّ اذا ما لقيتهُ سريع الى داعي الندى والتكرم

التي تطورت اولا فيما ارجح الى قراشي بحذف الألف الممالة خطاً ثم الى قرشي بحذفها لفظاً وخطاً

(رابعاً) ان قلب الواو قبل ياء النسبة الى نونٍ وإن لم يفطن لهُ (بحسب الظاهر) سيبويه ولا من تقدمهُ كالخليل ويونس لم يفت علامة اليمن وأديبها صاحب كتاب وصف جزيرة العرب. قال هذا الامام العلامة وجه ٥٥ من كتابه المشهور — وينسب الى صنعاء صنعاني مثل بهراء وبهراني لأنهم رأوا النون اخف من الواو . وخولان لا تنسب اليها الا على بنية الأصل صنعاوي وكلهم يقولون في ساكن الكدراء كدراوي ولا يقولون كدراني

اما الفيلولوجيون فلا يشكون في هذا الابدال ولكنهم يقولون انه يجري بداهة على الالسنة وأنهُ غير لازم ولا مطّرد فان قلت انّا اذا جارينا هؤلاء الفيلولوجيين اذن لا يعرف قائل بعدها ماذا يقول

قلت بل هو كسائر امثاله من الجائزات نعتمد المألوف المتعارف فيها ولا نعرّج على خلافهِ الاّ عند الحاجة . وازيد فأقول ان ما يجري بداهة على الألسنة قلّما يتغشّى على سامعٍ وقلّما يخالف المُتعارف

زعم بعض الأدباء في صنعاني وبهراني وامثالها انهُ من قبيل الشاذّ ولا اعلم على ماذا او على من اعتمد في قولهِ هذا فانهُ لم يعتمد على سيبويه ولا على الخليل ولا على الاعاهش كما أؤكد لانهُ لم يُنقل عن واحدٍ منهم في طول وعرض كتاب سيبويه ولأنه ليس واحدٌ من هؤلاءِ ولا من غيرهم يخرّج كلام الرسول على الشاذّ وقد ورد في حديث سليمان ان لكل امرىء جوانيًّا وبرّانيًّا فمن اصلح جوّانيّهُ اصلح الله برانيهُ . فهل يشكُّ هذا الأديب بصحة الحديث ام يقول انه منسوب الى جو البيت وهو داخلهُ وزيادة الألف والنون للتوكيد كما قال ابن الأثير !

أما انا فعندي انهُ منسوب الى جوّا وبرّا اللفظتين المحفوظتين الباقيتين على الألسنة في الشام كلها وفي مصر والعراقين كما ارجح وهو من باب صنعاني وبهراني . وان سلمنا بقول ابن الأثير فالنسبة من قبيل جسدانيّ وروحانيّ وهي نسبة سريانية فيها علامتا

نسبة على ما بينهُ العلامة الملفان المرحوم المطران يوسف داود في كتابهِ اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية . ومن بابها عبّاداني نسبةً الى عبادان (المدينة المعروفة) وعبادان بدورها نسبة الى عبّادابن الحصين الذي بناها او نزلها اولاً (راجع عبادان في معجم البلدان) وقول ابن الأثير ان الألف والنون للتوكيد هو احالة على مجهول لا يرضاها احد ممن شاموا المبادىء الفيلولوجية المسلم بها عندكل علماء اللغات في وقتنا الحاضر

(خامساً) ذكر ياقوت في معجمهِ أن كان ثلاث عشرة مدينة كل منها باسم الاسكندرية ومنها الاسكندرية قرية على دجلة بازاء الجامدة بينها وبين واسط خمسة عشر فرسخاً ينسب اليها احمد بن المختار ابو بكر الاسكندراني

(سادساً) ينسب الى الأعلام مطلقاً بدون قيد ولا شرط . اعلام الأشخاص او الأجناس وأعلام المدن والقرى والعشائر والقبائل والملل والنحل والولايات والممالك الخ ولا ينسب الى الصفات المشتقة . فقاضي وهاشم مثلا من حيث هما اسما فاعل لا ينسب اليهما للعبث فاذا سميا بهما قلنا حينئذ الأسرة القاضوية والهاشمية وأصبح المنسوب اليهِ صفةً تجري عليه كل احكام الصفة فهو اذن بهذا الاعتبار لا يجوز النسبة اليه. على انهُ اذا اخرج عن الوصفية الى العلمية « كالاسكندرية والنبطية » صار حكمه كحكم هاشم وعامر او القاهرة والحديثة اعلاماً وينسب اليهِ كما ينسب اليها .انتهت التمهيدات

لنرجع الآن الى النسبة الى الاسكندرية ولنبحث في الصور الجائزة لنا فيها ثم ايها افضل وأول ما نقوله ان الاسكندرية من حيث هي صفة مشتقة من اسكندر لا يجوز النسبة اليها لأنه من قبيل العبث لاجتماع نسبتين في الاسم الواحد من جهة واحدة ولكن الاسكندرية المدينة المعروفة اصبحت اسماً علماً ينسب اليهِ كما ينسب الى كل الاعلام المنقولة عن الصفات

اذا فهم هذا لم يبقَ علينا الا ان ننظر في الاوجه الجائزة لنا في النسبة اليها وهو الغاية من كتابة هذه المقالة فنقول يجوز لنا ما يأتي

(اولاً) نحذف التاء تشبيهاً لها بتاء الوحدة ونزيد ياء النسبة ونقول اسكندريّ كما قلنا (او قالوا) اميّ وعديّ وغنيّ . وفي هذه الصورة ما فيها من الثقل وتوسلاً الى ازالتهِ نقلب الياء واواً ونقول اسكندريويّ كما قلنا غنيويّ (توهماً) . ولما كان لا يزال هناك ثقل وسببهُ الكسرة المشبعة بين الفتحة اولاً والكسرة ثانياً دفعتنا بداهة الذوق والخاطر الى ابدالها او قلبها فتحة مشبعة وقلنا اسكندراويّ كما قالوا في زبيني زبانيّ وفي غنيوي (المتوهمة) غناوي ويجوز ترك اشباع الفتحة . اما في غناويّ فترك الاشباع

فيهِ من الخفة وحسن الوقع في السمع ما ترى في « غنوي » بخلاف زباني واسكندراوي فان الاشباع فيهما ولا سيما في الثاني الطف جداً وأشهى وقعاً في السمع من قولك اسكندروي بترك اشباع الفتحة ومن اسكندريوي بابقاء اشباع الكسرة مما لا فيها اوغير مما لٍ . وهنا نقول انا صورنا ابدال الواو بالياءِ والكسرة المشبعة بالفتحة المشبعة . وترك الاشباع تارة دون اخرى وفي اسم دون غيره كأنما هو يتطور في درجات وأعمال فكرةٍ وروية والواقع انهُ يجري على السننا وكان يجري على السنة من تقدمنا ببداهة الفطرة وعفو الخاطر تارة بهذه الصورة وأخرى بتلك الى ان غلبت صورة من الصور وألفت لسبب غالب أُلف

(ثانياً) يجوز لنا ان نقلب الواو في اسكندراوي نوناً كما قلبناها في صنعاوي وبهراوي وروحاوي ودستباوي وكما قلبناها في برّاني وجواني

(ثالثاً) يجوز ان ننسب الى الاسكندر رأساً ونقول مثلاً قال ابو بكر الاسكندري . ولما كانت القرينة الحالية الواقعية تمنع ان يكون المقصود بالنسبة اليهِ هو الاسكندر اقتضى مجازاً ان تكون النسبة الى شيء من معلقاته او ما يلابسهُ ملابسة جائزة واضحة وهي ملابسة الباني الى المبنيّ الواضحة والمعروفة اتم معرفة تاريخية . وهذا عملياً يعادل قول من يقول (لأنه غفل عن المجاز) انا نحذف ياء النسبة ونضع بدلها ياء اخرى غيرها لأنه لا يجتمع علامتا نسبة . والحقيقة هي على ما ذكرنا اي انا نسبنا مجازاً الى الاسكندر وأردنا النسبة الى متعلقهِ أي المدينة التي بناها وعلى فرض انا نسبنا الى الاسكندرية المعروفة فيكون حذف الياء للتخفيف لأنها ليست بعد ياء نسبة بل اصبحت بعد العلمية حرف هجاء كياء صفلية وهي اذا حذفت فانما تحذف للتخفيف ومع ذلك لو نسب ناسب فقال صقلاوي أو صِقِلاني لكان لا يزال في متنزّهات ومقاصف النسبة العربية ووفقاً لروحها التي هي اقرب الى المنطق والقياس الفطري البديهي من اللغات الغربية المهذبة التي نعلمها

(رابعاً) يجوز ان نعتبر الهاء في الاسكندرية هاء مهموسة ومن اصل الكلمة « وهي كذلك عند التحقيق الفيلولوجي » والهاء المهموسة هي الف بين الف المد والقصر فان اعتبرناها مقصورة قلنا اسكندريوي وان اعتبرناها ممدودة قلنا اسكندرياوي والصورة الثانية مفضلة على الأولى لانها اخف على اللسان وأحلى في السمع . وهنالك الطريقة العلمية التركية اي نترك هذه الهاء على صورتها ونقول اسكندريهوي ونقرأها كأنما هناك الف قبل الواو او بدونها وهذه الصورة من النسبة أي العلمية التركية يظهر حسنها في النسبة الى

مثل حلبية وبغدادية وجعفرية وشرقية وغربية ومطرية وطره ولا سيما في مثل معده وكره وثوره وذره وقد تنبهت الى هذه النسبة بما جاء للدكتور الأديب محمد جميل الخافي في مقالته الشائقة في « اللغة العلمية » في مجلة المعهد الطبي العربي

الخلاصة

او تلخيص كل ما ذكرناه مما دعا الى هذه المقالة هو انه في النسبة الى الاسكندرية يجوز لنا ان نقول فلان الاسكندري وفلانة الاسكندرية من باب المجاز لانا نسبة الى الباني وأردنا متعلقهُ وهو المدينة المبنية

ويجوز لنا ان نقول فلان الاسكندراني والاسكندراوي وفلانة الاسكندرانية والاسكندراوية وهذا ما يهمنا . وأنا واستاذي الدكتور صروف متفقان في جواز الصورتين اسكندري واسكندراني ولكننا مختلفان في التعليل والتعليل هو المهم وهو المقصود بالذات في هذه المقالة وله ما بعدهُ

اما التعليل الذي اذهب اليهِ فهو انا حذفنا التاء من اسكندرية توهماً انها « تاء وحدة » وقلبنا الياء الأخيرة واواً للخفة وقلبنا الياء التي قبلها الفاً وأثبتناها كذلك وكان يجوز لنا حذفها كما نحذف الياء الأولى في علي وغني وعدي لولا ان حذفها يؤدي الى الثقل وهو الذي نتجنبهُ ويؤيد قولنا انا سمعناهم يقولون اسكندراوي ولم نسمعهم يقولون اسكندروي لا بفتح الراء ولا بكسرها . وهذه الواو في اسكندراوي يجوز فيها لتقارب مخرجي الواو والنون ان تقلب نوناً في كثير من الصور للخفة وحسن الوقع في السمع ويفعل ذلك بداهة الذوق كصنعاوي وصنعاني وروحاوي وروحاني

ونفس هذه النتيجة كان يمكن ان نصل اليها فيما لو كنا اتبعنا مذهب القوم وطرائق تعليلهم ويمنعني من بيان ذلك الآن خوف الاطالة والتكرار وكفى ما كان منهما حتى الآن

وأما التعليل التاريخي الذي ورد لاستاذي فاذكره بنصهِ وهو « أن عامة العرب لما استوطنوا هذا القطر بعد الفتح سمعوا كلمة « الكسندريان » فلم يفطنوا الى ان النون التي في آخرها هي نون النسبة لأنَّ العامة تسمع الكلام وتحفظهُ وتستعملهُ من غير تعمل فالحقوها بياء النسبة على مقتضى مألوفهم فقالوا الاسكندرانيّ وشاع هذا الاستعمال الخ »

فما نظنهُ يحتمل التجريح الذي يستحقهُ كلام أستاذي حتى من الوجهة التاريخية فأنَّ أبا بكر الاسكندراني منسوب الى الاسكندريَّة القرية التي على دجلة لا الى الاسكندرية المصريَّة الروميَّة

وعلى فرض أن تلك القرية حفظت ما حفظتهُ اسكندريَّة مصر فماذا نقول في قيساراني نسبة الى قيساريَّة او في طبراني نسبة الى طبريَّة بل في الصالحاني نسبة الى الصالحيَّة وفي حاصباني نسبة الى حاصبيَّة ودير عطاني نسبة الى دير عطيَّة وكيف نعلل هذه النون في دير عطاني خصوصاً ؟

وأما القول « أن العامة تسمع الكلام وتستعملهُ من غير تعمُّل » فأفهم منهُ أن أستاذي أراد ان يقول انعامَّة العرب الذين استوطنوا القطر المصري بعد الفتح (وكانوا من صميم اهل الجزيرة العربيَّة وأفصح فصحائها) لا يُعوَّل على استعمالهم فان كان ما فهمتهُ صحيحاً فما كان أحبَّ اليّ لو فطن أستاذي الى الحقيقة العقلية والفيلولوجيَّة والتاريخية أيضاً وهي ان سيبويه واساتذتهُ الخليل ويونس وأمثال هؤلاء الاعلام ومن تقدم عليهم أو تأخر عنهم لم يضعوا القواعد للعامة وانما أخذوها عنهم وان كل قياس او قانون او قاعدة يضعها علماء اللغة للغة لا يجوز ان تخالف البداهة العامة وان وضعوا مثل ذلك فلا يثبت الا بقوة والى حين أيضاً ان لم تكن القوة التي تسندها ثابتة. ومع ذلك لا تموت اللغة المبنيَّة على البداهة بل تبقى جنباً الى جنب مع التي تسندها القوّة

وآخر ما يصعب عليّ ان اعترض بهِ على استاذي هو قولهُ « ويقتضي القياس حذف النون » لما فيهِ من التسرُّع وغض النظر عن المعقول والمنقول معاً . ولا أعلم على ماذا أو على مَن استند في حكمهِ هذا

كذلك كنت اود لو ترك اتلانتيكي وباسيفيكي على حالهما لم يقلقل هذين البحرين العظيمين فان « يك » فيهما مثل « يق » في ارعاطيقي وموسيقي ومثل « يز » في انكليزي و « يك » في انكليكاني وعهدي بهِ يرى الحكمة في بقاء ما كان من المألوف على ما كان. وليأمرني فاني لا اخاف ان اقول ان بداهة من تقدمنا من الكتاب اقرب الى الحقيقة من اجتهاد بعض المجتهدين المتسرعين في وقتنا الحاضر اعني القرن العشرين لأن اجتهاد هؤلاء البعض لا يسندهُ الا علمهم الاعتيادي . وأما بداهة اولئك فمن ورائها علم واجتهاد كل من تقدمهم . وبعبارة اخرى ان البداهة العامة الموروثة خلفاً عن سلف منذ اربعة عشر قرناً الى اليوم وهي واحدة عند ابناء العربية وعند ابناء الانكليز والفرنساويين لا ينبغي ان يستخفّ بها ولا يصح العدول عن مقتضاها الاَّ بشهادة العلم البديهية التي هي اقوى منها او بشهادة حسن الذوق البديهي الذي لا يمارى فيهِ والمعذرة من القراء الكرام على ما أطلت بهِ وكان يمكن فيهِ الاختصار والسلام

ارتقاء اللغة العربية

واستعدادها أيضاً للارتقاء

— ١ —

اللغة العربية ليست بنت القرن السابع المسيحي ولا بنت القرن السادس أو الخامس. ولا هي أيضاً بنت القرن السابع قبل المسيح بل هي أقدم عهداً من ذلك بكثير

هي الأخت الكبرى للعبرانية والارامية ان لم تكن أمهما وعلى ما تصرح به تواريخنا العربية المكتوبة وتقاليدنا المروية جيلا بعد جيل خلفاً عن سلف هي لغة العاديين الاراميين تجار حضرموت وسبا وعمان واليمن ولغة تمدنهم السامي السامي . لغة وصلت الى درجة من الارتقاء جعلت مثل صاحب حصن تيماء منذ الف وأربعمائة سنة ونيف قبل اليوم يقول

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضهُ فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس الى حسن الثناء سبيل

وجعلت أيضاً مثل بن الطثرية اعرابيًّا جافياً لا يرى الا شيحة او قيصوماً وقلما يأكل الا ضباً أو يربوعاً أكلت رجليه الأبارق والأماعز بل أكلت الابارق والاماعز رجله يقول ما يحسده على رقيه كثيرون من شعرائنا الحاليين شرقيين وغربيين

بنفسي من لو مرّ برد بنانه على كبدي كانت شفاء أناملهِ
ومن هابني في كل شيء وهبتهُ فلا هو يعطيني ولا أنا سائلهُ

ويقول

فياخلة النفس التي ليس دونها لنا من اخلاء الصفاء خليل
ويامن كتمنا حبه لم يطمع به عدوّ ولم يؤمن عليه دخيلُ
اما من مقام اشتكي غربة النوى وخوف العدى فيه اليك سبيل
فدبتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وأشياعي اليك قليلُ
وكنت اذا ما جئت جئت بعلة فأفنيت علاتي فكيف أقولُ
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي اليك رسولُ

وجعلت ابن الدمينة أيضاً وهو اعرابيٌ مثله يقول

لك الله إني واصل ما وصلتني ... ومثن بما أوليتني ومثيبُ
وآخذ ما أعطيت عفواً وانني ... لأزور عما تكرهين هيوبُ
فلا تتركي نفسي شعاعاً فانها ... من الوجد قد كادت عليك تذوبُ
وإني لأستحييك حتى كأنما ... علي بظهر الغيب منك رقيبُ

ولا ينقص عنهما في الرقة والبيان وجودة السبك قول الصمّةِ عبد الله بن قشير بن كعب اعرابيّ آخر مثلهما في جفاء العيش وخشونته

حننتَ الى ريا ونفسك ماعدت ... فرارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسنٌ أن يأتي الامر طائعاً ... ويجزعَ ان داعي الصبابةَ أسمعا
قفا ودّعا نجداً ومن حلّ بالحمى ... وقلّ لنجدٍ عندنا أن يودّعا
بنفسي تلك الارضُ ما أطيب الرُّبا ... وما أحسنَ المصطافُ والمتربّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر أعرض دوننا ... وحالت بنات الشوق يحنَّ نزّعا
بكت عبني اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

هذا مثال مما قاله هؤلاء الاعراب في الترفق والغزل ولا ينقص عنه في البيان وحسن السبك ما قالوه في الفخر والحكم والرثاء وما الى ذلك واليك ما قاله النهشلي

انا محيُّوك يا سلمى فحيينا ... وان سقيت كرام الناس فاسقينا
وان دعوت الى جُلّى ومكرُمةٍ ... يوماً سراة كرام الناس فادعينا
أنا بني نهشل لا ندعي لاب ... ولا هو بالابناء يشرينا
ان تبتدر غاية يوماً لمكرمةً ... تلق السوابق فينا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبداً ... الا افتلينا غلاماً سيدٌ فينا
إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ... ولو نسام بها في الأمن أغلينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة ألا أين المحامونا
لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... من فارسٌ خالهم إياه يعنونا

الى آخر القصيدة

ومثل قول النهشلي قول الآخر من قصيدة له قال :

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركبُ حدَّ السيف من أن تضيمهُ ... اذا لم يكن عن شفرة السيف مرحل

وكنت اذا ما صاحبٌ رام ظلتي ... وبدّل سوءًا بالذى كنت أفعلُ
قلبت له ظهر المجن فلم أدم ... على ذاك إلا ريثما أتحـولُ
اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد ... اليه بوجهٍ آخر الدهر تقبلُ

ولو أطعت هوى النفس واستشهدت بكل ما تراه أهلاً للاستشهاد به لملأت جزءًا بل أجزاءً من الهلال الأغر على اني لا أطاوعها وأستأذن القراء في ذكر الأبيات الآتية فقط لامرأة من نسائهم وهي المعروفة بليلى الأخيلية قالت :

يا أيهـا السدم الملوّي رأسـه ... ليقود من أهل الحجاز بريمـا
أتريد عمرَ بن الخليع ودونه ... كعب إذن لوجدته مرؤوما
ان الخليع ورهطـه في عامر ... كالقلب ألبس جؤجؤاً وضريما
لا تغزوَنَّ الدهر آل مطرّف ... لا ظالمـاً أبداً ولا مظلوما
قوم رباط الخيل وسـط بيوتهم ... وأسنّةٌ زرقٌ تخـالُ نجوما
ومخرّق عنـه القميص تخـاله ... وسط البيوت من الحياء سقيما
حتى اذا رفع اللواء رأيتـه ... تحت اللواء على الخميس زعيما

دعنا من الشعراء والمنظوم من أقوالهم وانظر الى الأحاديث المروية عن الرسول فان هناك منها نحواً من عشرة آلاف حديث كانت في أوائل المئة الثانية للهجرة متداولة على الألسنة أو مودعة في بطون الدفاتر وكلها من الكلام الذي أقرت له العرب والعجم انه من الكلام الذي لا يفوقه ان لم نقل لا يماثله كلام في فصاحةٍ وبلاغة

اللغة العربية في ما بين سنة مئة واربعين ومئة وخمسين كان فيها من كتب الأدب مثل كتاب كليلة ودمنة والدرة اليتيمة وغيرهما من ترجمة او من تأليف ابن المقفع الكاتب المشهور وكانت فيها قبل ذلك مثل رسالة عبد الحميد الكاتب المشهور للكتاب وكتب الحجاج الى قواده وعماله وقبلها الرسائل التي تبودلت بين الامام عليّ ابن أبي طالب وبين معاوية والخطب التي يعزوها ابن قتيبه الى ذلك الامام والى أصحابه من الصحابة والتابعين واثبتها في كتابه المشهور والمعروف « الامامة والسياسة »

كل هذه المكتوبات وامثالها وهي كثيرة كانت من الفصاحة والبلاغة بحيث لا تزال الى الآن من النمط العالي الذي ينسج على منواله والغالب الذي يضرب على مثاله

اللغة العربية في الفاظها المفردة من أغنى لغات العالم قديماً وحديثاً واظن هذا من المسلم به عند العلماء من الغربيين والشرقيين وذلك للسبب الذي اشرنا اليه آنفاً اي انها كانت لغة اعظم فرع لأعظم امة قامت في العالم الأمة الآرامية العادية تاجرة العالم قديماً

وناشرة التمدن السامي في اوربا وافريقيا ذلك التمدن العظيم الذي لا تزال آثاره ماثلة في محافل حضرموت واليمن ، وفي قصور بابل واشور وهيا كلها الخالدة على الدهر بل ازيد واقول وفي برابي مصر ايضاً واهرامها لا تزال فتنة الناظرين ودهشة العلماء والمفكرين

وليس غنى العربية في كثرة الفاظها فقط بل غناها العظيم الذي لا يكاد يماثل انما هو في اتساع اشتقاقاتها وكثرتها ونفوذ القياس واطراده في أغلبها ان لم اقل فيها كلها ، وما أظنها تنقص عن اليونانية او اللاتينية مصدر غنى اللغات الأوربية ومقلع رخام الفاظها العلمية والفنية

هذه لمحة دالة على غنى اللغة العربية وسبب غناها وكل علماء اللغات الذين اتقنوا العربية ووقفوا على دقائقها وغناها في مفرداتها واشتقاقاتها يوافقون على ما قلناه بل قد نقل عن بعضهم أنه قال ما معناه: ان كان ثمَّ للغة حق أن تعيش وتبقى فالعربية أحق لغة أن يكون لها هذا الحق . وأنا اقول صدق هذا العلامة الاميركاني وقد عاشت اللغة العربية المضرية الى الآن الفاً وخمسمائة سنة وابناؤها اليوم يكادون يفهمون اشعار شعراء الجاهلية والمخضرمين كما يفهمون أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي أو كما يفهمون أشعار أبي العلاء والشريف الرضي ويفهمون أشعار هؤلاء الفحول المتقدمين كما يفهمون أشعار شعراء المئة السادسة والسابعة بل هم يطربون بشعر الشعراء الاندلسيين وموشحاتهم ويقلدونها في نظمهم كأنها نظمت البارحة . ولعلَّ همَّ كثيرون من خيرة شعراء عصرنا الحالين بقية القرن التاسع عشر ومن سبقهم من شعرائه أرباب الشهرة التي طبقت مصر والشام والعراق بل العالم العربي عن آخره، همّ اكثر هؤلاء ان لم أقل كلهم كان أن يحتذوا خطوات مَن تقدمهم من شعراء اليتيمة كالمتنبي وأبي فراس الحمداني ومن خلفهم كالمعري والشريف الرضي ومن خلف هؤلاء من شعراء المئة السادسة والسابعة. بل أعظم مدح لشاعر من أغلب شعرائنا الحالين الحاضرين أن تنعته بالمتنبي الكندي أو بالمتنبي المغربي أو بابن نباتة المصري أو بابن النبيه أو بابن سهل الأندلسي وأمثال هؤلاء . ومعنى ذلك أن اللغة العربية لغة حية كانت ولا تزال فلماذا يشكونها البعض ومما يشكون منها يا ترى ؟

من يشكو منها وهل هو محق في شكواه ؟

— يشكو منها بعض الشعراء شعراء المنظوم والمنثور

اذا كان همُّ اكثر هؤلاء الشاكين أو من هم في طبقتهم أن يقلدوا شعراء الحماسة أو شعراء اليتيمة بل شعراء المئة السادسة والسابعة في الفاظهم وعباراتهم وتركيبهم بل في أغلب تشابيههم ومجازاتهم وكناياتهم فكيف تحق لهم الشكوى من اللغة أنها تنقص بأفكارهم

وتضيق دائرة الفاظها وتراكيبها عن دائرة خيالاتهم وتصوراتهم الشعرية

وأنا أقول لهؤلاء الشاكين يا هؤلاء ما أنصفتم لغتكم ولو أنصفتم لسمعتم هاتفاً يهتف بكم أن وسعوا دائرة خيالكم وتصوراتكم عن ابتكار لا عن تقليد وعن رويةلا عن رجمة وأنا الضمين لكم أن العربية تتسع أمامكم كما اتسعت لمن تقدمكم وأنكم تجدون في الفاظها المتولدة والتي يمكن أن تتولد على القياس (لفاعم الاشتقاق والقياس) ما تطلبون وفوق ما تطلبون

رأيت البعض يدعون الملل من القوافي التي تتشابه وتتوازن ، وبعض هؤلاء يقولون تقليداً (على ما أظن) واتباعاً بالشعر الأعمى أي الشعر الذي لا قافية له فيالله من أمثال هؤلاء فانهم على ما هو أولى أن يقال فيهم غلبهم حب التقليد على حسن ذوقهم الطبيعي فجعلهم يرون المحاسن على غير صورتها الحقيقية جعلهم يرون القافية العربية الجميلة الرنانة تثقل على أسماعهم ويشكون منها بل تطرف بعضهم وهم قلائل فعدلوا الى طرق غير مطروقة والى صور غير مألوفة لا عندنا ولا عند الغربيين كل ذلك عن حسن ظن على ما أظن ببعض أساتذتنا الغربيين الذين قالوا في القافية العربية ما قالوه عن غير تحقيق أو قالوه متسرعين في الراجح

استطراد

كان تسارع الى ذهني ان متابعة بعض أدبائنا لبعض الاساتذة الغربيين غريبة في بابها لا نظير لها وكدت أحسبها من جملة الأدلة التي تقيمها احياناً او نقيم مثلها على انحطاطنا وفساد اخلاقنا وتربيتنا . ولكني عدت ففكرت انا كثيراً ما نتعصب لأساتذتنا الوطنيين ونتابعهم فيما يذهبون اليه لا نسألهم دليلاً على ما يقولون ولا نطالبهم بحجة فيما يعتقدون بل قد كان مثل هذه المتابعة معروفاً عند من تقدمنا في ازمان عزنا واستقلالنا عن الغربي

واليك ما جاء في هذا الصدد لشيخ من كبار شيوخ الأدب رحمه الله بعد ان ذكر ما ذكر من فضل العلم ومنزلته من التلميذ وحقوقه عليه مانصه :

« ولا ينبغي ان يبعثه أي التلميذ معرفة الحق له أي للعلم على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الاعتناء له على التقليد فيما اخذ عنه فانه ربما غالى بعض الاتباع في عالمهم حتى يروا ان قوله دليل وان لم يستدل وان اعتقاده حجة وان لم يحتج فيفضي بهم الأمر الى التسليم له فيما اخذ عنه . (الى ان قال) ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفر وقد استدل عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها ان قال هذه دلالة فاسدة

وجه فسادها ان شيخي لم يذكرها ومالم يذكره الشيخ لا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجباً ولأن شيخه كان محتشماً » اه

والظاهر أن هذا غيرمقصور علينا فقد اخبرني احد الأساتذة الافاضل الذين كانوا في نيويورك مدة ودرسوا في جامعتها المشهورة واخذوا دبلوماها ان القوم هناك يحترمون جداً النقول عن الأساتذة واهل العلم المشهورين ويقبلون المنقول عنهم من غير ان ينظروا في صحته او في عدمها ويكاد يكون المنسوب الى استاذ من اساتذة الجامعة عند احد تلامذتها او غيره كالمنسوب الى الشيخ الذي ذكره العلامة الماوردي عند تلميذه الموصى اليه. ولنرجع بعد هذا الاستطراد الى ما كنا فيه

لا شك عندي ان بعضاً من الأساتذة الغربيين وبعضهم ممن كان من اساتذتنا طعنوا في القافية لما رأوا مالها من المقام عندنا وزعموا انها تؤدي الى السآمة والملل وسواء كانوا يعتقدون اولا يعتقدون صحة ما قالوه وسواء ايضاً قالوه بعد الفكرة والروية او قالوه على الخيل مع التسرُّع والعصبيَّة فأنا اعتقد ان ما قصد اليه شاعرنا العربي بقوله — ايها اللائم سلمى — يصدق على اكثر هؤلاء الطاعنين ويشك في انهم ممن جمعوا بين التحقيق والانصاف — وقليل هم الذين هم من هذه الطبقة — ومع هذا وذاك نقول لمثل هؤلاء الشاكين من يلزمكم ان تنظموا اكثر من عشرين الى اربعين على قافية واحدة . واذا شاقكم البحر الذي تنظمون عليه وخفتم من ملل تكرار القافية فأمامكم المخمَّسات او الموشحات الأندلسية واذا امتدَّ بكم نفس موضوع قصيدتكم الى الغربيات (نفرض ذلك فرضاً) فلماذا لا تقسمون الموضوع الى ابواب وفصول كما تبوّبون وتفصلون المنثور وحينئذ تجدون مندوحة عن ملل القافية وعن ملل الوزن او البحر الواحد ايضاً اذا كنتم تشكون منه كما تشكون من القافية ولم أسمع من شكا من هذا القبيل

وكان حالها في الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا الى حكم

وأظن السبب أن احد الغربيين لم يشكُ من ذلك كما شكا بعضهم من القافية . ولولا ان أعظم شعراء الغربيين انكليز وفرنساويين ينظم أحياناً مئات الأبيات على وزن واحد لرجحت أننا كنا سمعنا الشكوى من البقاء على الوزن الواحد كما سمعناها على تكرار القافية الواحدة

وغاية ما أقوله ولاسيما من جهة استعداد اللغات الغربية لبيان المعاني والتخيلات الشعرية وما اليها نظماً ونثراً اني أشكُّ في أن اللغة الانكليزية وهي في الوقت الحاضر أغنى لغات أوربا تستطيع ان تمثل افكار المتنبي وحماسة المتنبي المعروفة له في مديح سيف الدولة بألفاظ أفصح من الفاظه وعبارات ابلغ من عباراته او تحدث في النفس لو اخذت على عهدتها

تصوير تلك المعاني ما تحدثه تلك القصائد من القشعريرة والنشأة في نفس قارئها

ولا أشك ايضاً بل أنا على يقين ان المعاني والحكم المودعة في كافوريات هذا الرجل لا تستطيع اللغة الانكليزية على تصويرها بعبارة ابلغ من عبارتها العربية . فان قلتَ ان المتنبي وابا العلاء المعري والبها زهير لم ينظموا مثل معاني شكسبير ولا تقابل معانيهم بمعانيه ولا طريقتهم بطريقته . قلتُ انت هنا تقابل الرجل بالرجل لا اللغة باللغة فشكسبير غير المتنبي وغير أبي العلاء وغير البها زهير وعلمه غير علمهم وطريقته وموضوعه غير طريقتهم وموضوعهم ولا شك عندي ان شكسبير كان اوسع تخيلاً وأعلم بالناس واتباع الناس وبما يجول في خواطر كل طبقة من طبقاتهم اكثر من البها زهير ومن المتنبي ومن أبي العلاء ايضاً ولكن هذا لا يعني ان اللغة الانكليزية في اتساعها واستعدادها للترقي كانت وستكون أفضل من اللغة العربية وان نسبتها اليها في ذلك هي كنسبة اتساع خيال شكسبير ومعرفته بأطباع الناس وعواطفهم وانفعالاتهم الى اتساع خيال المتنبي ومعرفته كذلك

افرض ان مثل شكسبير الآن ومثل المتنبي كذلك توارد خاطر كل منهما على معنى واحاط كل بذلك المعنى كاحاطة صاحبه به وجاء هذا بعبارته الانكليزية وذاك بعبارته العربية فأي العبارتين تظن كانت تكون افصح وابلغ — الحكم في هذا نتركه لمعارف باللغتين

دعنا من الفرض والحكم على المفروض وهلم بنا الى الموجود والواقع فعلاً وبيانه : اطلع احد كبار اساتذة الانكليز وجهابذة كتابهم على ديوان البهاء زهير واحاط بمعانيه كل الاحاطة وفهمها بمساعدة المرحوم رزق الله حسون تمام الفهم ثم ترجم ذلك الديوان الى الانكليزية . ولا شك ان غيره وقف على هذه الترجمة كما وقفت انا عليها منذ سنوات فليحكم الاديب المطلع على الترجمة بين اللغتين وليقل لنا هل الالفاظ الانكليزية وتراكيبها هي اشف عن تلك المعاني من اللغة العربية واكثر منها ايجازاً واقتصاداً على انتباه السامع

اخترت ديوان البهاء زهير لأن الرجل شاعر فكاهي اعتيادي لم يغرق في تخيلاته ولا في تصوير انفعالاته وجلُّ ما جاء به ان لم يكن كلهُ من المألوف المعتاد بل عبارته تنحو في أغلب أحوالها منحى لغة العامة ألا انها عبارة أديب عارف بصرف اللغة ونحوها لا يتجوز ما يتجوزه العامة من ثلم زوايا الالفاظ الصرفية ولا يخلُّ بالاستواء الذي يقتضيه المطار الاعرابي ومثل هذه اللغة ليس في ترجمتها الى لغة أخرى ما يعجز المترجم وتغصُّ به اللغة المترجم اليها

ثم اصل اللغة الانكليزية غير أصل اللغة العربية في اطباعهم وعاداتهم وحاسياتهم

ومجاري أفكارهم وغيرهم أيضاً في علمهم واختباراتهم وبالتالي في تخيلاتهم وفي قابلياتهم واستعدادهم . واعترف أيضاً من غير استحياء أن في خاصة الانكليز وأهل الأدب منهم الآن أفراداً أرقى من خاصة المتكلمين بالعربية في استعدادهم وعلمهم معاً . كل ذلك مسلم به عندي وعند غيري كما أرجح ولكني لا أسلم إن استعداد اللغة الانكليزية لاتساع وتصوير الأفكار والتخيلات الشعرية حقيقة أو مجازاً هو في أصله وطبيعته أعلى وأرقى من استعداد اللغة العربية له . ينقصنا استعداد الاشخاص لا استعداد اللغة وارتقاء الافراد المتكلمين بها لا إرتقاؤها لأن إرتقاء اللغة إنما هو بارتقاء أفرادها وانحطاطها بانحطاطهم أو بتلفهم ومتى وجد الشخص المستعد ذو المخيلة الواسعة الشعرية بين أدباء العربية وجدت فيها تلك التخيلات الشعرية السامية والمخيلة لاينقصها شيء مما تراه لها من الرونق والطلاوة والبهاء في لغة من اللغات الغربية

وجد الريحاني فوجد وادي الفريكة . وجد جبران جبران فوجد من العواصف وأمثالها في كتابته ومن لا تأخذه نشأة وإنما نشأة وهو يقرأ كتابات هذين الكاتبين الشعرية والنثرية . أنا أعرف الريحاني شخصياً واعرف ان تمكنه من اللغة الانكليزية يفوق تمكنه من العربية وان ما استمده من لغة كبار كتاب الانجليزية في الفاظهم وعباراتهم هو اضعاف ما استمده وما يستطيع أن يستمده من كبار كتاب العربية ولكن جمال وادي الفريكة في العربية ليس هو دون جمال ذلك الوادي فيها لو كتبه الريحاني باللغة الانكليزية على ما اعتقد . مع أنه لو كان استعداد الانكليزية في أصل فطرته ارقى واقوى من استعداد العربية لكان حسن وادي الفريكة فيها لو كتبه الريحاني بالانكليزية عشرة اضعاف حسنه في العربية

ماذا نقول ايها الريحاني العزيز وقد قرأت ما قلت اني اعتقده عن جمال وادي الفريكة في العربية وانك لو كتبته بالانكليزية لما زاد جمال المكتوب في هذه عن المكتوب في بلده كما ينبغي أن يزيد فيها لو كان استعداد اللغتين في أصله واحداً بداعي كثرة من كان يمكن ان تستعين بهم من كتّاب الانكليزية الذين سبقوك وقلة من استعنت بهم من كتاب العربية بل ارجح ترجيحاً يقارب اليقين انك لم تستعن بأحد اما لانه لم يقله بين كتّاب العربية الغابرين مثل كتّاب وادي الفريكة أو لأن كتبهم تولاها الضياع مع الايام او ابتلعها دجلة في جملة ما ابتلعه من كتب مكاتب بغداد

يا حضرة جبران افندي أنا وان لم اعرفك ودعني اقول بعض المعرفة واظن أنك في آداب اللغتين كما ذكرت عن الصديق الريحاني ولذلك أسألك هل كانت تكون

عواصفك فيما لو كتبتها بالانكليزية في شدتها ضعفي ما هي عليه في العربية ولا أقول اضعاف « على ما كان ينبغي » بل هل كانت تكون مثلها مع شيء من الربا الذي يستحقه رأس مال اللغة الانكليزية المتحول اليك من بنوك كبار كتابها

وما قلته في الكتابة الشعرية اقوله في الكتابة الادبية في كل انواعها على العموم اي اننا نحتاج الى الكتّاب المستعدين بالفطرة اولاً وبالاكتساب ثانياً مع التفرغ للكتابة وترك الاشتغال في غير ما تجردنا وتفرغنا للكتابة فيه . فانه — على ما اعتقد — إذا وجد الكتاب على هذه الشريطة في العربية وجدت فيها ولاشك تلك الكتابة البليغة السامية التي تراها لكبار كتاب الانكليز والفرنساويين . وبعبارة أخرى ليوجد في كتّاب العربية من هم في استعدادهم الفطري والمكتسب مثل كارليل ومكولي مثلا او مثل فكتور هيوكو ورينان فتوجد فيها كتابة هؤلاء في السمو وبلاغة البيان

وجد ابن خلدون فوجدت مقدمته وليست كتابات امثاله من الفرنساويين والانكليز في هذا الموضوع بأبلغ من كتابته في المقدمة . وُجدَ الامام الغزالي فوجد الاحياء وبقية مؤلفات هذا الامام التي لا نظير لها في فصاحة الفاظها وبلاغة عباراتها مع الدقة والتحقيق اللذين لا يتهيئان لكاتب ما لم تكن اللغة التي يكتب فيها على درجة بالغة من الارتقاء والاتساع

وجد الامام الزمخشري وخطيب السري الفخر الرازي فوجد تفسيرهما والكتابان آية من آيات البلاغة وهيهات ان يكون لكتاب في مثل موضوعهما مثل مالهما من رائع الفصاحة وسمو البيان والبلاغة ،ولو كان المؤلف من طبقة رينان عند الفرنساويين او من طبقة مكولي او كارليل عند الانكليز

ومثل تفسير الامام الفخر الرازي تفسير العلامة ابي السعود محمد العمادي قاضي السلطان سليمان الكبير العثماني فان واقفاً على هذا التفسير لا يتصور أن تقوى لغة غير العربية على الاتيان بتفسير أفصح منهُ او ابلغ

وجد المرحومان جورجي زيدان وجميل الدور فوجدت روايات الاول التاريخية ووجد حضارة الاسلام في دار السلام للثاني كتاب لو وزن بالدرر لرجحها. ولو تفرغ المرحوم زيدان للروايات التاريخية واستعان ببعض من كتّاب الروايات الذين تقدموه لكانت روايات المرحوم زيدان لا تنقص في فصاحتها وبلاغتها وتلاحم نسجها ودقة تعبيرها عن كتابات دوماس الشهيرة ان لم تكن زادت عليها طلاوة وبلاغة عبارة على

حين ان المرحوم زيدان لم يكن كاتباً روائياً بل كان في فطرته فيلسوفاً مفكراً وانما عدل الى كتابة الروايات لانه رأى ان سوقها رائجة وطلابها كثيرون يزيدون عشرات المرات عن طلاب التاريخ والفلسفة والاعتبار

وجد الدكتور صروف فوجدت رواياته فتاة مصر وفتاة الفيوم ووجد ترجمة الحرب المقدسة وسر النجاح والدكتور صروف ليس هو روائياً في فطرته ولا تفرغ لكتابة الروايات انما عنّ له ان يودع بعض صفحات المقتطف شيئاً من فلسفة الاقتصاد وقوة العقل والمال وشر المضاربات وما تؤدي اليه ليستفيد الشبان من فلسفته ويحذروا من شراك المضاربات المنصوبة أمامهم بصورها الكثيرة الجذابة ومع ذلك جاءت رواياته في شكلها وموضوعها كأحسن ما كتب في بابهما من الروايات الغربية مبنى ومعنى ولقد قرأت الروايتين حين صدورهما ولا ازال الى اليوم اشعر بنشأة استحسان تقوم في نفسي كلما ذكرت اسميهما

وجد المرحوم البستاني والدكتور فانديك فوجدت ترجمة سياحة المسيحي التي تكاد تكون ابلغ من الاصل او كأن الكتاب وضع وضعاً ولم يترجم ترجمة

وجد المرحوم فارس الشدياق فوجد كتاب الواسطة وكتاب كشف المخبأ وسائر كتاباته الأدبية البالغة من الحسن والطلاوة مبالغها ولعل كل من ذكرنا لم يكونوا في استعدادهم الفطري من الطبقة الأولى فيما كتبوا فيه وبعبارة أخرى لم يكن استعدادهم للكتابة في المواضيع التي كتبوا فيها أو ترجموها نظير استعداد أكابر كتاب الانكليزية والفرنساوية في تلك المواضيع هذا فضلاً عن أنهم لم يتفرغوا لما كتبوا فيه كما تفرغ من نقابلهم بهم من أكابر كتاب القوم الذين نقابل لغتنا على لغاتهم ومؤلفاتنا على مؤلفاتهم

وجد المرحوم الدكتور شميل فوجدت كتاباته في الموضوع المستعد له في فطرته ومع أنه لم يستعن بغيره من كتاب العربية المتقدمين عليه جاءت كتاباته في فصاحة ألفاظها وبيان مبادئها وبلاغتها كافصح وأبلغ ما جاء في ذلك الموضوع لأكابر علماء الفرنساويين والانكليز

وصلت في نسخ هذه المقالة الى هنا ثم اتفق أن أحدهم فتح « المورد الصافي » الذي صدر حديثاً وقرأ علينا فيه مقالة المرحوم الشيخ اسكندر العازار موضوعها « قيمة الاشياء » فقلت في نفسي لو أن المرحوم الشيخ اسكندر تفرغ وهو في الاربعين من عمره لهذا النوع من الكتابة الذي اشتهر فيه دكنس عند الانكليز ومارك توين عند الاميركان فأي ذخيرة بل أي كنز كانت صارت كتاباته في العربية لمن يأتي بعده من

الكتاب . ان المقالة المشار اليها أسالت في مواضع كثيرة منها دموع الكثيرين منا ان لم أقل كلنا لفكاهتها وتدفقها بحسن الدعابة وخفة الروح. وهنا يصح أن نقول كما قلنا سابقاً:

وجد المرحوم اسكندر العازار فوجدت كتاباته في خطبه التي رن صداها في الآفاق وأطربت نوادي الأدب من سمع ومن قرأ ولا تزال في كثير من مواقفها ومباحثاتها تضحك الثكلى ويغفل منها الحزين عن أحزانه والشجي الصابي عما شجاه وأصباه

وما تنسى — فلا ينبغي لأحد ان ينسى — كتابات المرحوم قاسم أمين في كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة فانها من الطراز العالي فوجد وقد كان المرحوم قاضياً فيلسوفاً لا منشئاً كاتباً فكيف بكتابته فيما لو كان مفطوراً على الادب وحسن البيان وتفرد للكتابة فيما فطر عليه . وأرجح أيضاً انه لا يذكر ذاكر في مصر المرحوم قاسم أمين الا ويذكر تلميذته المرحومة باحثة البادية ومن يقول ان كتابة سيدة أوربية في سنها وفي الموضوع الذي كتبت فيه هي في البيان والبلاغة او في فصاحة الالفاظ والعبارة أعلى طبقة رحمها الله

(٢)

عود الى الشعر والشعراء

لم اتصدَّ لذكر السابقين المجلين من شعرائنا الذين تفخر بهم العربية الآن في مصر والشام والعراقين لاسباب منها اني أخاف الغفلة عن ذكر من لا يجوز الغفلة عن ذكرهم جهلاً مني بهم أو نسياناً عن غير قصد وهذا ما لا يجوز لي ومما لا أريده أيضاً بوجه من الوجوه ومنها ان أكون قائلاً ما اقوله في شعرهم عن رأي لا عن تقليد . وهذا يقتضيني مراجعة ليست متيسرة لي الآن ولو تيسرت مراجعة دواوين كبار شعرائنا فما يتيسر لي مراجعة دواوين من هم في طبقتهم من شعراء الانكليز لاقابل بينهم واحكم عن يقين في أي المجلي من شعراء الفريقين أشعراء العربية أم شعراء الانكليز

ثم على فرض اني راجعت وقابلت فأخاف ان لا اكون منصفاً اذا حكمتُ ولا اشك ان الحيف يكون واقعاً على شعرائنا ويحقُّ لايٍّ منهم اذا قابلت شعره بشعر تيسن مثلاً فبان السبق لشاعر الانكليز ان يقول لي ما أنصفتني ولا أنصفت العربية وقد كان يجب عليك ان تفطن لمغزى شاعرنا العربي حيث قال

تقولين ما في الناس مثلك عاشق جدي مثل من أحببته تجدي مثلي

وأنا أقول جد لي أمة كالأمة الانكليزية اشعر بها اني سائد لا مسود وسابق لا مسبوق وعزيز غني لا ذليل فقير وحاكم مسلط نافذ أمره في غيره لا محكوم مسلط

عليه نافذ امر غيره فيه . وجد لي بوسط راق وتهذيب بالغ مستوف كالوسط والتهذيب اللذين كانا لتنيسن وخذ مني بعد ذلك شعراً كشعره فيه خيالٌ كخياله وفخر كفخره وعزة وطموح كعزته وطموحه . نعم جد لي امة ووسطاً اشعر معهما كما كان يشعر تنيسن او من شئت غيرهُ من شعراء امته فأجد لك شعراً يقول بلسان حاله عن نفسه

بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا وانا لنبغي فوق ذلك مفخرا

مساكين نحن أبناء العربية ومساكين هم أغلب شعرائنا الذين ليس لهم ما يفاخرون به الآن الا عظام الأجداد الباليـة : أين محيطهم من محيط أمثالهم من شعراء الانكليز وأين وسطهم الراقي الذي عاشوا وتهذبوا فيه من وسط أولئك وأين شعورهم الشخصي وشعائرهم القوميـة من شعور أولئك وشعائرهم . واذا كان الشعر ابن الشعور الشخصي والقومي كما يذهبون وكما هو الحق فشتان اذن شتان بين شعر شاعر من أمة غالبة سائدة وشعر شـاعر آخر من طبقته ولـكنه من أمة مغلوبة مسودة : كيف بل مئة مرة كيف يستوي شعر هـذين ؟ ومتى استويا أو يستويان ؟ دعوني أنظر الى هذه المسألة من وجه آخر وليعذرني القراء على اشباع الـكلام في هذا الموضوع فانه ما زال منذ سنين يجول في خاطري وأنا أتوجع للغتنا وشعراء لغتنا من اعتقاد بعضهم فيها ممن استهوتهم الأميال والآداب الانكليزية أو الفرنساوية . ولذلك لا أستطيع أن اتركه وقد اكتبتني الفرصة قبل أن آتي على آخر ما يحضرني مما يغشُّ وطاب كربي ويفثأ ثوران صدري

لنفرض أن شاعرنا العربي المصري أو السوري عاش في وسط راق كالوسط الانكليزي وغيبنا عنه فكر السائد والمسود والغالب والمغلوب أيجوز لنا أن نتصور أن تكون البيدعية التي فيه من حيث الشدة والاتساع كالبيدعية التي في الانكليزي من هذه الحيثية ؟ كلا لا يجوز ثم كلا وكلا فان خمساً وأربعين مليوناً بل مئة وخمسين مليوناً (انكلترا واميركا) لا يكون أنبغ نابغ فيهم في الشعر والأدب أو في الاقتصاد والسياسة أو في الالهيات والفلسفة مساوياً لانبغ نابغ في اثني عشر مليوناً أو قل خمسة عشر مليوناً (أهل مصر والشام) . نعم يتشابهان في أن كلا منهما أنبغ نابغ في أمته ولـكنهما لا ينبغي أن يتساويا في شدة النبوغ واتساعه ولنضرب مثلا على ذلك

ان مشتلة تنبغ فيها خمسة وأربعون مليون شتلة لا تكون الشتلة أو الشتلتان المنقاة منها في علوها وثخنها وعدد أوراقها وسـائر الصفات المؤذنة بميزة فرد عن آخر وتفوقه عليه كالشتلة أو الشتلتين اللتين تنتقيان من مشتلة ليس فيهـا الا اثني عشر مليون شتلة وهكذا فقل في مشتلة (أو دندالة) من التوت أو التين أو الزيتون أو التفاح أو أو الخ

بل المشتلة التي هي أكثر أفراداً يظهر فيها النبوغ الاعظم في شدته واتساعه

والارجح ان يكون الحال في القوميات الانسانية كالحال في المشاتل اذا تساوت القوميات بحسب الظاهر في سائر المحيطات الحسية والمعنوية ماعدا كثرة العدد فان القومية التي هي أكثر عدداً يكون عدد الافراد النوابغ فيها أكثر وفي الوقت نفسه يكون التفوق في شدة النبوغ أو البيدعية حيث يكون التفوق العددي

معلوم الفرق بين محيط الفرد منا ومحيط الفرد من المتكلمين بالانكليزية . معلوم كذلك الفرق بين بيدعيتنا وبيدعيتهم وبين ارتقائنا العلمي والسياسي والفلسفي الخ وبين ارتقائهم فانهم يفوقوننا في جميع ذلك ويفوقوننا أيضاً في كثرة عدد الأفراد ولعل نسبتنا اليهم في ارتقاء المحيط العلمي والأدبي والسياسي هو كنسبة واحد الى ثلاث أو أربع وأما في كثرة العدد فنسبتنا اليهم كنسبة واحد الى عشرة فان المتكلمين بالانكليزية في بريطانيا والولايات المتحدة نحو من مئة وخمسين مليوناً وعليه فاذا كانت لغتهم في استعدادها الفطري أو الاولي أرقى أو أعلى من استعداد العربية فينبغي إذن أن يكون الفرق الحالي في آداب اللغتين واقتدارهما على تصوير المعاني الشعرية وقل أيضاً المعاني الأدبية والسياسية والاقتصادية والفلسفية بالغاً أعظم مبالغه ولايجوز المقابلة بينهما والمتصدي للمقابلة لا يرى غير السخرية وتزوية الفم والانف وينظر اليه كما ينظر الى من يتصدى لمقابلة عمران القاهرة مثلا بعمران بعض العزب في ضواحيها أو بمقابلة عمران بيروت وجمال قصورها بعمران إحدى قرى البقاع وجمال بيوتها المبنية بالطين وبعض الحجر

وان كان استعداد اللغتين الفطري أي لغتنا ولغتهم واحداً فلارتقاء محيطهم عن محيطنا ولزيادة عدد المتكلمين بلغتهم عن عدد المتكلمين بلغتنا كان يجب أن تكون آدابهم وشعرهم وفلسفتهم في حسنها وبلاغة بيانها وما الى ذلك أعلى من آدابنا وشعرنا وفلسفتنا ثلاث مرات الى عشر مرات . ولو كان الفرق بالغاً هذه الدرجة ما كان احد على ما اظن يجسر على الوقوف بجانب لغتنا والانتصار لها بل كان رجل مثلي يتصدى لكتابة ما كتب يحسب مدخولاً في عقله وأقل ما كان يليق به من النعوت أنه جاهل مغفل لا يدري ولا يدري انه لا يدري. ولما كانت نتيجة كلا الفرضين هي مما لا يسلم به ولم نرَ من عالم ولا من أديب مفكر حتى من نفس الغربيين قال به فالفرضان اذن — أي ان لغتهم باستعدادها الأولي أرقى من لغتنا أو مساوية لها — جديران بالشك وعدم القبول وبالضرورة يكون ما نحاول اثباته وقد تعيننا له في هذه المقالة ما تعيناه هو الاجدر بالقبول والثقة أي أن لغتنا باستعدادها الأولي أو بفطرتها الأصلية هي أرقى من الانكليزية أو الفرنساوية

وأعلاها بلاغة وأبينهما بياناً في الشعر والخطابة وما الى ذلك من العلوم الدينية والاجتماعية والفلسفية ولكنها تحتاج الى الخدمة والى من يخدمها من الافراد النوابغ والمبدعين ويحتاج هؤلاء اذا ظهروا أن يتفرغوا لما خلقوا له وأن تتصرف اليه وجهتهم . وهنا أقول أن يبادعة (١) البيان كيبادعة الفنون اذا وجدوا انصرفوا الى ما فطروا عليه على رغم الصعوبات والموانع الا أنهم قلما يظهرون الا في الفترات المتقطعة والأحايين من الدهر في كل أمة لا فرق في ذلك بين شرق وغرب أو بين أصفر وأحمر فما على العربية الا أن تستشرف الى ظهورهم حتى اذا ظهروا وعرفتهم كان عليها أن تنزلهم المنزلة التي تحق لهم وتحتفظ بهم ولا احتفاظها بأنفس الاعلاق وأثمن الجواهر . ولعل عدداً منهم تفاخر كل أمة بوجود مثله بينها هو الآن بين ظهرانينا في المهاجر وفي البلدان العربية وأخص مصر والشام والعراقين على رغم الحالة الشوهى التي صرنا اليها من ضغط السياسة الأوربية علينا وطمو تمدنهم وعوائدهم وأفكارهم على تمدننا وعوائدنا وأفكارنا ولما نتكيف لكل ذلك بعد

كأني أسمع قائلاً يقول وجد بين اساتذة الانكليز من ترجم ديوان البها زهير وجاءت ترجمته كما يقولون غاية في الاجادة وحسن البيان . ولكن لم يوجد بين اساتذة العربية من نظم ديوان شاعر انكليزي وجاء فيها كما جاء ديوان البها زهير في الانكليزية فماذا تقول ألا يؤخذ من هذا ما يؤيد دعوى من يزعمون انحطاط العربية عن الانكليزية وقصورها عن ان تؤدي ما تؤديه تلك من البلاغة وحسن البيان ؟

والجواب : نعم وجد بين اساتذتهم من ترجم ديوان البها زهير ولحد الآن لم يوجد بين اساتذتنا من تصدّى لترجمة ديوان شاعر انكليزي بل على فرض انه وجد من تصدّى

---

(١) اليبادعة أو الابادعة جمع يبدعي وأبدعي على قياس بلمعي وألمعي هو الذي يبدع في أقواله أو في فنه اي يأتي به على غير مثال وبعبارة اخرى هو الذي قد يبتكر العبارات ابتكاراً لا يقلدها تقليداً وذلك لما يرى من المناسبات الخفية التي لا يراها غيره بين المعاني والالفاظ الدالة عليها وبين بعض الافكار والعبارات الخاصة المبتدعة كقولهم حمي الوطيس . وان من البيان لسحرا . وهذا يوم له ما بعده . والايمان يوجب ما بعده . والمضعف امير الركب . والناس ابناء ما يحسنون . ولعل من هذا الباب قول من قال :

مستقبل بالذي يهوى وان كثرت ... منه الذنوب ومعذور بما صنعا

وقول ابي نواس : لا تسدين الي عارفة ... حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقوله ايضاً ليس على الله بمستنكر ... ان يجمع العالم في واحد

وكثير من ابيات ابي تمام والمتنبي التي جرت مجرى الامثال فانها كانت في زمانها من المبتكرات على الارجح

لذلك ثم لم يستطع ما استطاعه الاستاذ الانكليزي الموحى اليه فلا يؤخذ ذلك في اعتقادي دليلاً يؤيد زعم الزاعم بقصور العربية وسبق الانكليزية

وبياناً لذلك أقول دعوني أذكر لكم شيئاً عن مترجم ديوان البهاء زهير وشيئاً عن الديوان نفسه ولكم بعدها ان تحكموا بما شئتم

مترجم البهاء زهير هو الاستاذ ادورد هنري بلمر المشهور استاذ العربية في جامعة كمبردج جامعة من أقدم وأشهر الجامعات البريطانية وقد خصص حياته للاشتغال بالعربية بعد ان انتقته جامعته لذلك انتقاء من بين مئات طلبتها المبرزين ومضى على الاستاذ في مهنته هذه سنوات عديدة كان لا هم له فيها الا بلوغ أقصى الغاية فيما اتجهت وجهته اليه من ترك أثر له عن العربية يكسبه فخراً وشهرة ويكسب جامعته أيضاً مثل ذلك ان لم يكن اضعافه وفوق ذلك فقد استعان الاستاذ الموحى اليه في ترجمته بأديب عربي هو رزق الله حسون لا غيره . رجل كان من خيرة ابناء العربية وأشهر أدبائها وكتابها لذلك الحين فضلا عما في كمبردج من الاسباب والوسائل التي تسهل للاستاذ بلمر وأمثاله الوصول الى الغاية التي يرمون اليها

فالى أن يكون عندنا جامعة في الشهرة والقدم ككمبردج والى أن يتهيأ أن ينبغ فيها اساتذة يدرسون الانكليزية ويبرعون فيها على نسبة تفوقهم في العربية وتزيح جامعتهم عنهم العلل والاسباب التي تصرفهم عن موضوع تدريسهم وغاية حياتهم الى أن يتم كل ذلك ويتصدى منا استاذ لترجمة مثل ديوان البهاء زهير ثم لا يستطيع أن يأتي بمثل ما أتى به الاستاذ هنري بلمر الى حينذاك لا الى ما قبله ينبغي التوقف في الحكم بقصور العربية وسبق اللغات الاجنبية الانكليزية أو الفرنساوية

نعم قبل ان يتحقق كل ما ذكرناه لا يجوز لزاعم ان يزعم في العربية ما يعتقده بعض أبنائها الذين يتأدبون على موائد اللغات الاجنبية وقد سقاهم اساتذة تلك اللغات سلوانات لا سلوانة واحدة ولا اثنتين ليسلوا لغتهم وينصرفوا عنها وعن محاسن آدابها الحاصلة والتي يمكن أن تحصل

لنرجع الى الديوان المترجم والى صاحبه فنقول كان البهاء زهير وزيراً اديباً وكان شاعراً فكهاً رقيق حواشي الطبع خفيف الروح فجاء ديوانه كأخلاقه سهل العبارة قريب الاشارة لا تثقل الفاظه في سمع ولا معانيه على فهم لم يأت فيه بتخيلات غير اعتيادية ولا أتعب نفسه بحكم غامضة أدبية أو بتصورات سياسية اجتماعية تستدعي درجة رفيعة من الفهم وقدراً كبيراً من الذوق والعلم . ولذلك فما أظن انه يصعب على أحد من نبهاء الازهر

الشريف ممن يترفعون قليلاً عن متوسط الكتاب أصحاب الذوق وسلامة الطبع في اللغة والانشاء أن يترجم ديواناً هو في الانكليزية كالبها زهير في العربية بشرط أن يكون ممن أتقنوا فهم الانكليزية كما أتقن الاستاذ بلمر فهم العربية ثم يمكن من الأسباب واتساع الزمان كما مكن من كل ذلك الاستاذ الموحى اليه

بل انا اعتقد أن أديباً من أدباء الازهر ممن يميلون الى فنون الأدب والبلاغة ولا يزيد عن أن يكون من الطبقة الاولى الاعتيادية في صناعة الانشاء اذا استعدّ كما استعدّ الاستاذ بلمر وأزيحت أعذاره كما أزيحت أعذار ذاك يستطيع ان ينقل « الفردوس المفقود » الى العربية بل و « الفردوس المرتجع » أيضاً نقلاً يوسم بطابع من البلاغة وحسن البيان لا يقل عما وسم به ديوان البها زهير في ترجمة الاستاذ مع ما لهذين الكتابين من علو الطبقة ورفيع المنزلة في اللغة الانكليزية

أنا لا أعلم أديباً منا تصدّى لنقل ديوان من دواوين شعراء الانكليز فأستشهد به تقوية أو اثباتاً لما أذهب اليه ولكني أعلم ان البستاني نقل الالياذة المشهورة الى العربية ومع انه لم يتفرغ للنقل ولا كان من الذين وقفوا كل حياتهم للغة وصناعة البلاغة مع ذلك وعلى تباين ما بين العربية واليونانية في الذوق والتخيل بالنسبة الى الانكليزية جاءت ترجمة العلامة البستاني لا تنقص في حسن بيانها ولا في تصوير ما أراده شاعر اليونان عن معدل أحسن ترجمات هذه المجروية (١) الى اللغة الانكليزية فماذا يمكن بل يجب أن يستدل مستدل من ذلك يا ترى ؟ أني اترك الجواب لأهل العلم والتحقيق من المتأدّبين وذوي الانصاف في أحكامهم سواء كانت أحكامهم لهم أم عليهم

— ٣ —

سمعت مرة أحد الأدباء يذكر كتاب الأبطال وعبادة الأبطال لكارليل الانكليزي وكان الاعجاب به ملء فمه وصوته وملء عينيه ووجهه (ويستحق كل ذلك كتاب كارليل كما سمعت) ولكنه كان في أثناء ذلك يشكو بل يتمرمر أسفاً ان ليس في العربية مثل هذا الكتاب ويخاف ان هو أقدم على ترجمته أن يقال له ماذا دنعت ـ خمّست أم خمشت؟

(قل للذي خمسها خمستها يا أعور)

وكانت غنة المرارة ظاهرة كل الظهور في اعتراف هذا الأديب بعجزه عن الترجمة ويعني بعجزه أن لا تجيء الترجمة في بلاغتها وحسن بيانها واشاراتها كما هي في الأصل

---

(١) نسبة الى ماجري وسمعتهم يقولون مجروية الزير القصة المنظومة بالشعر العامي

الانكليزي . ولكني لحظت أن هذا الأديب (وأمثاله كثيرون) كان يلقي معظم العجز ان لم يكن كله على عاتق اللغة لا على عاتقه

اني أشعر مع هذا الاديب ومع كل أديب مثله اذ يرون مثل هذا الكتاب الذي يصدق فيه ما قال قول المعري

لفظ كانَّ معاني السكر تسكنهُ ... فمن تحفَّظ بيتاً منهُ لم يُفِق

إذا ترنم شادٍ للنياع به ... لاقى المنايا بلا خوفٍ ولا فِرقَ

وان تمثل صادٍ للصخور به ... جادت عليه بعذب غير ذي رنق

يرون مثل هذا الكتاب ولا يستطيعون أن يردوه من ساعتهم الى العربية ببلاغة كبلاغة أصله وبيان كبيانه ولانهم لا يفطنون الى ان العجز والقصور في نفوسهم يزعمونه في اللغة وينسبونه اليها ثم يشكون منها مرَّ الشكوى . وأنا لا أكتفي هنا بمجرد قولي أنهم مخطئون كما ألمعت الى ذلك قبلا مرة أو مراراً بل لا بد ليَّ من بيان موضع الخطأ ولا سيما في مثل كتاب كارليل هذا فأقول

(١) ان أمثال هؤلاء الادباء لا يفطنون الى ان كارليل هو من نوابغ كتاب الانكليز ومن أفرادهم في الادب وصناعة الانشاء في القرن التاسع عشر وانه الى الآن لم يظهر في عالم البلاغة الانكليزية أحسن منه ان لم أقل مثله

(٢) أنهم لا يفطنون أيضاً في الراجح الى أن كارليل بقي نحواً من عشرين سنة تقريباً يطالع ويفكر ويستعد قبل أن كتب هذا الكتاب . ولعله أيضا بعد أن كتب مسوداته بقي بضعة أشهر ان لم أقل بضع سنين يحل ويعقد في نسيج كتابه حتى جاء على صورته الأخيرة التي يراه عليها أدباؤنا المتشوقون الى ترجمته من غير أن يستعدوا لها الاستعداد اللائق بها

(٣) أنهم لا يفطنون لسلسلة أفكارهم الحقيقية التي يبنون عليها احكامهم الظاهرة فكأني بهم يثبون وثباً من مقدماتهم الى النتيجة بدون أن يدققوا في صحة المقدمات

لو حلل الاديب الذي أشرت اليه معقود سلسلة أفكاره لوجدها على ما يأتي — وهي كذلك حللها هو أم لم يحللها

(١) من يستطيع لدى المطالعة أن يفهم بداية أفكار مؤلف في مؤلفه ومراميه فيها يستطيع أن يبني مثل مؤلفه اذا وجد المواد اللازمة للبنيان

(٢) أنا فهمت كتاب كارليل ومراميه فيه وفهمت قواعد البنيان التي جرى عليها أثناء ما كان يبني بل درستها في كتب البيان العامة التي درسها هو ولعلي زدت عليه في

ذلك . والنتيجة التي يرجح أن قد وثب اليها ذهنه من هاتين المقدمتين هي : اذن أنا أستطيع ان اترجم الكتاب اذا وجدت المواد اللازمة للترجمة ولكني جربت الترجمة فلم أستطعها . ثم لما كان فهمي وفهم كارليل فيما أودعه كتابه متساويين فبالضرورة ان المواد اللازمة للبناء التي كانت عنده والمواد التي هي عندي غير متساوية وهو المطلوب. وهنا أيضاً اعظم الخطأ واخفاه كما يظهر للمتأمل بعد التروي واعمال الفكرة

لنبحث الآن في صحة المقدمة الأولى ومن يسلم بصحتها بعد التفطن لها ؟ لا أحد على ما أظن فانه ليس كل من يستطيع فهم افكار مؤلف وفهم الضوابط والقوانين التي بموجبها بنى المؤلف افكاره يستطيع ان يبني مثل تلك الافكار . فصناعة الحياكة حياكة الخام البلدي على انوالنا السورية البسيطة يستطيع اكثر الذين عندهم ادنى مسكة في الصناعات اليدوية أن يفهموها في أيام قلائل وقل في أسابيع ولكنهم لا يستطيعون حالما يفهمون قواعد الحياكة بالمشاهدة العينية بل بعد الممارسة الاولية أيضاً أن تأتي شقتهم التي يحيكونها بعد تلك الممارسة كشقة المعلم الذي تعلموا عنه وأحبوا أن يحاكوه

هب صناعة نسج خيوط الانشاء الفكرية في بساطتها وسهولتها كصناعة نسج الخيوط القطنية أو الصوفية فانك لا تستطيع بمجرد فهمك افكار مؤلف في كتابه وان بلغت في ذلك مبلغ فهم المؤلف تماماً أن تأتي شقة ترجمتك لها كشقة المؤلف في قوتها وتلاحم خيوطها مع تناسبها بعضها بعضاً في كل أجزاء الشقة من أولها الى آخرها ولا سيما اذا كان ثمَّ وشيٌ ونمنمة تحب ان تقلدها أيضاً . وقس على صناعة الحياكة صناعة الموسيقى . وهنا أمثل لك بي ذاتي فاني درست مبادىء الموسيقى وفهمت عقلياً أو نظرياً كل ما قاله لي الاستاذ عن طبيعة الصوت في سائر درجاته الثمان من دو القرار الى دو الجواب وكنت أستطيع حيناً أن أقرأ بكل سهولة علامات كل ترتيلة في كتاب ترتيل الكنيسة الانجيلية البروتستانية بل وتمرنت على ترنيم بعض هذه التراتيل مدة لا تقل الآن عن خمسين سنة ومع ذلك فالى هذه الساعة لا أستطيع أن أرنم أبسط ترنيمة منها لوحدي . واذا وقف المرتلون الذين أتابعهم بصوتي عن الترتيل وقف لوقفتهم كل وتر في حنجرتي . وعلى فرض اني بقيت مستمراً في ترتيلي كان ترتيلي تصويتاً لا ترنيماً وتخبيطاً لا توقيعاً (ومن توفيقاتي والحمد لله أني أفهم من نفسي هذه المقدرة الموسيقية وسمو درجة استعدادي فيها تمام الفهم)

والمقدمة الثانية مغلوطة أيضاً كالاولى لانه على فرض اني فهمت كل ما ذكره كارليل في كتابه فهل اكون فهمت كل ما أودعه فيما ذكره في ذلك الكتاب . ولبيان ذلك اكتفي بأن أسأل هذا السؤال وهو : هب ان كارليل لم يكن في رأسه غير ما ذكره في

كتابه فهل كان استطاع هو نفسه أن يكتب ذلك الكتاب او يجيء كما جاء خلابة وبياناً ساحراً . كلا . وانا أسأل أيضاً كل اديب قرأ كارليل هل فهم من كتابه لاول مرة قرأه نفس ما فهمه في المرة الثانية ؟ وهل يفهم من قراءته للمرة الثانية نفس ما يفهم في المرة الثالثة من غير زيادة ؟ أم هو يفهم في كل مرة قرأ الكتاب مع الفكرة والروية شيئاً زائداً عما كان فهمه في القراءة التي سبقت ؟

لنرجع الى ما كنا فيه والى الاديب الذي أشرنا اليه . لنفرض ايها الأديب أن فهمك وفهم كارليل تساويا بتكرار مطالعتك لكتابه ولنفرض أيضاً مجرد فرض أن ذوقك في فن الانشاء كذوقه وبدعيتك في البلاغة وحسن البيان كبدعيته فهل المواد اللازمة للكتابة الحاصلة لك والمخزونة عندك مساوية للمواد الحاصلة كانت له والمخزونة كانت عنده ؟ مالنا والمواد اللازمة للكتابة في نفس اللغة العربية والانكليزية فان حسن كتابتك أو ترجمتك لا تتوقف على هذه بل على مقدار الحاصل لك والمخزون عندك منها

ان كارليل اطلع على كتابة عشرات من أبلغ الكتاب في لغته وحفظ من الشعر والنثر البليغ في الانكليزية ما يقارب ماكان يحفظه ابو بكر الخوارزمي فهل قرأت أنت — ولا اقول حفظت — ديوان أبي تمام ورسائل الخوارزمي وفهمت ايضاً مع القراءة ما في الفاظ هذين المؤلفين اي الديوان والرسائل فأصبحت تستطيع ان تميز بين المعنى الحقيقي والمجازي وفي أي المعنيين تستعمل هذه أو تلك اللفظة التي يتفق لمستفهم ان يستفهم منك من معناها ؟

ماذا كانت مطالعاتك في كتب اللغة والادب والحكمة والتاريخ وأي الكتب البليغة وقفت عليها وتعنيت بضبطها واستقصاء البحث عن أصل معاني الفاظها ؟

أقرأت مؤلفات الجاحظ بل البيان والتبيين من مؤلفاته ؟

أقرأت مؤلفات الثعالبي قراءة فهم وروية ؟ بل ارضى لك أن تكون قرأت له اليتيمة فقط . او رسائله الخمس وكتابه سحر البلاغة

هل قرأت مؤلفات ابن مسكويه ؟

هل قرأت مؤلفات الغزالي ؟

هل قرأت مؤلفات محي الدين ابن العربي . بل هل قرأت كتاب صبح الأعشى للقلقشندي ؟

لوسألت عن اسماء الكتب واسماء الكتّاب المشهورين الذين راجع كارليل مؤلفاتهم مراجعة فهم واستقصاء لوجدت عشرات من مثل أبي تمام وعشرات او اكثر من مثل

الجاحظ والثعالبي ومثل ذلك او قريب منه من أمثال ابن مسكويه والغزالي وابن العربي

كل مؤلفات مثل هؤلاء الاكابر راجعها الرجل قبل أن بدأ بكتابة كتابه وخزن عنده منها ما خزن من الفاظ لغته وعبارات بلغائها فهل فعلت نصف ما فعله بل ثلثه بل ربعه ؟ استعد نصف استعداد الرجل واخزن في محفوظك من الفاظ العربية وعبارات بلغاء كتابها في مواضيع تقرب من موضوع كتاب كارليل نصف ما كان يخزنه هذا الرجل ثم جرب نفسك في ترجمة كتابه وانا الكفيل لك انك تستطيع ترجمته في سنة أو سنتين ويجيء كما تشتهي ويشتهيه أصحاب الأذواق الجميلة في فن البلاغة. بل أنا الكفيل انك تضعه وضعاً كأنك كتبته ابتداء من عند نفسك ولا ينقص قدر كتابك في العربية عن قدر كتابه في الانكليزية ذرة من البلاغة وحسن البيان

ان معظم أدبائنا الحاليين هم ممن درسوا في الانكليزية أو في الفرنساوية سنوات وطالعوا ما شاء الله أن يطالعوه من بليغ كتب أدبها وفلاسفة أدبائها وكل ذلك بعد ان درسوا كتب صرفها ونحوها وبيانها وبلاغتها وحذقوا ذلك اكثر من ابنائها ولكنهم في لغتهم اقتصروا على درس بعض علوم اللغة من الصرف والنحو متأففين ولعلهم مروا مرور المسرع على مختصر من مختصرات البيان والبلاغة وأما كتب الأدب والتاريخ وما اليها من كتب الحكمة والسياسة المدنية فقلما زادت مطالعاتهم في هذه عما يكتب عادة في مجلاتنا العلمية والأدبية . وبعبارة أخرى أنهم صرفوا سبع سنين الى ثمان أو تسع في كلية أجنبية وكانوا في كل تلك المدة يدرسون لغتهم ساعة ويدرسون لغة المدرسة التي هي الانكليزية أو الفرنساوية أربع ساعات على الأقل الى الست ساعات

ثم بعد أن أخذوا شهادة المدرسة بقيت نسبة مطالعاتهم في لغتهم اليها في لغة أجنبية كنسبة واحد الى اربع . امثال هؤلاء الأدباء ينتقون من الكتاب امثال كارليل الانكليزي وامرسون الاميركاني وامثال شاتوبريان الفرنساوي ويحاولون ترجمة أعلى مؤلفاتهم درجة في البلاغة وحسن البيان من غير ان يزيد على استعدادهم الذي اشرنا اليه في لغاتهم الا ما هو دون الطفيف . فاذا رأوا من انفسهم العجز ولا غرابة فيما اذا رأوا منها ذلك دعوا بالويل والثبور على لغتهم واتهموها بكل تهمة شنعاء وغفلوا عن انفسهم وقصور استعدادهم وعلمهم بل غفلوا عن ان لغتهم انما هي هم ترتقي بهم وتنحط بغفلتهم او بانحطاطهم والغفلة هي الغالبة علينا

اطلعتُ على قراء الهلال الاغر فيما كتبت ولكنه موضوع طالما جال في خاطري فلم ار بدأ من توفية حقه فأطلت لأفش بالاطالة كربي وأسري عن نفسي ولعلي

سرَّيت عن نفوس كثيرين غيري ونفثت بما أطلت من نجائث صدورهم وصدري. أقف هنا الآن لاعقب هذا الفصل بفصل آخر آتي فيه على مختصر من تاريخ اللغة العربية كيف نمت وارتقت ثم كيف وقفت وتراجعت الى ان بدأت النهضة الحديثة وما رافق كل ذلك من تطورات اللغات الاجنبية الى أن أصبحت سابقة مقلدة بعد أن كانت لاحقة مقلدة . فلعلنا بهذه اللمحة نهتدي شيئاً الى ما نحن في حاجة الى الاهتداء اليه من احياء معالم العربية والرجوع بها الى المنصة اللائقة بها بين اللغات الحية والمنزلة الحرية ان تكون لها بين لغات الادب والعلم والفلسفة الحالية وبالله الاستعانة وهو حسبنا ونعم الوكيل

اللغة العربية واللغات الاوربية

اللغات الاوربية لأول أمرها والعلوم

كانت مدارس الأندلس العربية في ابان عزها بالنسبة الى بلدان اوربا كمدارس اوربا واميركا اليوم الى البلدان العربية في آسيا وافريقيا . وكانت اللغة العربية لغة العلم وعنها يترجمون . ولكن لغات القوم حتى ارقاها لم تكن تقوى على ان يؤلف فيها ولذلك كان علماؤهم وادباؤهم يعتمدون على اللاتينية ويؤلفون فيها . والذي في ذهني ان العلامة نيوتن الانكليزي كتب كتبه العلمية في اللاتينية لا في الانكليزية

في أواسط وربما في أوائل القرن السادس عشر بدأت النهضة الأوربية الحالية وأخذ الكتاب الفرنساويون والانكليز والجرمان يضعون الكتب في لغاتهم او يترجمون اليها مافي خزائن اللغتين اليونانية واللاتينية . فأخذت هذه تتدرج في اتساعها وغناها شيئاً فشيئاً حتى بلغت ما بلغته بعد نهضة استمرت في سيرها الى الآن من غير ان تقف نحواً من اربعمائة سنة ونيف أي منذ اكتشفت اميركا الى اليوم ولا تزال حركة هذه النهضة على مثل ما كانت عليه بل هي اليوم على اسرع ما بلغته من السعة وأوسع ما بلغته من الاتساع

قلت ان القوم أي علماءهم وأدباءهم كانوا يكتبون ويؤلفون في اللغة اللاتينية حتى القرن السادس عشر ثم منذ حينئذ صارت مؤلفاتهم وكتاباتهم في لغاتهم إلا ما قلّ منها فأخذت تلك اللغات تزداد توسعاً وارتقاء حتى بلغت ما بلغته الآن . وكانت تنظر في بدء نهضتها تلك الى العربية وتحسدها على غناها وجمالها فأصبحنا اليوم وقد انقلب بنا الحال فأصبح من كان حاسداً محسوداً ومن كان غنياً فقيراً وبالعكس

ولا بد لي من ان اشير الى ان النهضة الاوربية الاخيرة كان سبقتها نهضة قبلها وهي نهضة الأجيال المتوسطة وكان بدء هذه النهضة الأولى رجوع الملوك والامراء الصليبيين من الشرق ولا سيما من سوريا وفلسطين مغلولين مقهورين

والذي احب الاشارة اليه تلميحاً هو ان الاوربيين منذ ايام الغزوات الصليبية الاولى وابتداء فشلهم انتبهوا لانفسهم فرأوا ماهم فيه من الجهل والانحطاط بالنسبة الى الممالك الاسلامية في الشام ومصر واخذوا في تلافي امرهم فبدأوا بانشاء المدارس الكلية والجامعة ويرجع عهد بعض تلك المدارس في فرنسا وجرمانيا الى اواخر ايام الحروب الصليبية

وكان الذين يرجعون الى اوطانهم الغربية من الشرق يحملون معهم افكاراً جديدة ومبادىء جديدة وبالاجمال يحملون مبدأ نهضة فكرية اجتماعية دينية كانت سبباً في زعزعة ثقتهم بالحالة التي كانوا فيها وبالعلم والآداب الدينية والاجتماعية التي كانوا يرونها كالوحي المنزل لا يجوز لهم الخروج عنها او تعديلها بوجه من الوجوه . فلم يأت القرن السادس عشر حتى كانوا تشربوا افكار الشرقيين وعلوم الشرقيين اعني العرب في الشام ومصر وفي مستعمراتهم في اسبانيا وفي البلدان المقابلة لها من افريقيا — وتمّ لهم في بدء ذلك القرن أمران الأول غلبتهم على التفوق الشرقي العربي باستيلائهم على الاندلس كلها وابعاد العرب عنها لم يبق فيها منهم الا من اعتنق النصرانية . وهـذا وان كان من الأهمية بمكان عظيم إلا ان الأمر الثاني وهو اكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا الصالح كان أهم من الغلبة على العرب في الاندلس وطردهم منها

سبب اهمية التغلب على الاندلس واكتشاف اميركا وطريق رأس الرجا الصالح

الانقلاب كما لا يخفى ذلّ والغلبة عزّ . الانقلاب يدعو الى الانخذال وقصر المطامع والرضوخ لمزجية العيش والرضا بالحاصل مهما كان خوفاً من الصيرورة الى ما هو أدنى وأدهى والغلبة تدعو الى عكس ذلك كله . ان طرد العرب من الأندلس كان بمثابة احساس لاوربا بالقلب واما اكتشاف اميركا فكان لاوربا غلباً ظاهراً فعليًّا وقد استمر لها هذا الغلب مدى ثلاثمائة سنة كانت في اثنائها تتزايد غنى وجاهاً . وكذلك اكتشاف طريق رأس الرجا الصالح فانه ادى الى سلسلة انتصارات على شعوب افريقيا وآسيا وغلبة على ممالك كان لها الغلب سياسة وتجارة وصناعة على ما سواها من الممالك . وكل هذا جعل نهضة اوربا على نموّ وقوة سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل الى الآن . وعلى عكس ذلك كان الحال في الشام ومصر والعراقين وشبه جزيرة العرب

قلت ما قلت لاذكر العارفين بالتاريخ ان اوربا بدأت تستيقظ من جهلها على عقب الحروب الصليبية وأما نهضتها العظيمة فبدأت باكتشاف اميركا واكتشاف طريق رأس الرجا . واما مصر والشام والعراق فبدأ جمودها ونومها منذ ابتدأت اوروبا تستيقظ وأخذت بالتراجع منذ بدأت أوربا بالتقدم وقد ابتدأ تقدم اوروبا وتأخرنا نحن منذ اكتشاف اميركا أي من اربعمائة سنة ونيف

اللغات تابعة أبداً لاحوال المتكلمين بها فاذا تقدموا وسادوا تقدمت وسادت واذا تأخروا وذلوا تأخرت وذلّت . بدأت اللغات الاوروبية بالتقدم منذ ابتدأ القرن الثالث عشر او ما قبله قليلاً فما بلغت اواخر القرن السادس عشر حتى كانت قد اصبحت

على مستوى لغتنا العربية في ابان نهضتها وعزها او تكاد . ومنذ ذلك الحين مازالت اللغات الاوربية في تزايد من غنى وارتقاء والعربية في تزايد كذلك لكن من فقر وانحطاط الى اواسط القرن الماضي فان العربية استيقظت حينئذ باستيقاظ الدولة المصرية المحمدية العلوية واستيقاظ العشائر اللبنانية معها وساعدها في يقظتها هذه الارساليات الكاثوليكية والبروتستانية بما شادته هذه الارساليات من المدارس العالية وبمن علموهم فيها من نخبة ابنائها وابناء السواحل السورية . وزاد في اتساع هذه النهضة ان اكتشفنا بالهاجرة طريق اميركا من جديد وطريق رأس الرجا الصالح ايضاً فلم تبلغ القرن العشرين حتى استردت لغتنا العربية ما كانت خسرته في زمن انحطاطها واستأنفت فوق ذلك كما اعتقد شيئاً من التقدم الذي تتبعت فيه خطوات اللغات الاوروبية . وها نحن الآن نحاول ان تصل العربية في قرن الى ما وصلت اليه لغات اوربا في اربعة قرون على حين لا تزال اوربا سائدة ونحن مسودون وظافرة ونحن مظفورون (اي مظفور بنا) ومبتكرة ونحن مقلدون ومتبوعة ونحن تابعون وعالمة بما تصنع ونحن جاهلون وفوق ذلك هي مطلقة ونحن مقيدون . وذلك مما لا يكون بل لابد لنا من الزمن الكافي لتبلغ لغتنا العربية في العلوم والفنون ما بلغته الانكليزية والفرنساوية . ولولا اني اعتقد ان الاستعداد الفطري فينا وفي لغتنا العربية اقوى اجمالاً من استعداد الغربيين ولغات الغربيين لقلت انه يستحيل علينا اللحاق بهم بعد ان سبقونا هذا السبق البين في اثناء المدة التي اشرنا اليها الا اذا حدث من الحوادث ما اخرهم وقدمنا وقلّ من عزمهم وارهف عزمنا . وكل ذلك مما ليس في الحسبان بل ليس في افق آمالنا ما يشير اليه

كيف نستطيع اللحاق بالغربيين

قلت ان اللغات الغربية لحقت لغتنا العربية في القرن السادس عشر ثم تركتها وراءها ومنذ ذلك الحين اخذت مسافة البعد تتزايد بين لغتنا ولغاتهم بما كان من استيقاظهم ونومنا وحركتهم وجمودنا حتى جاءت الدولتان دولة محمد علي باشا في مصر ودولة حليفها الامير بشير الشهابي في لبنان . وعضد النهضة العلمية في ايامها وما بعدها الارسالية الاوروبية التبشيرية وان شئت فقل دعاة الكاثوليكية والبرتستانية ولكن هيهات ما كان ولا يزال بين سرعة سيرهم وسيرنا وتقدمهم العلمي وتقدمنا . والامر لا يزال على ما كان عليه بل حركة سيرنا العلمي قد اخذت الآن بالتناقص عما كانت عليه في اول هذا القرن وبقيت حركة سيرهم على ما كانت عليه بل زادت فكيف نلحق بهم ! بل هل نستطيع ان نلحق بهم (عظمة وجاهاً) وكانوا وما زالوا اكثر منّا عدداً واوسع تجارة واشد حولاً وطولاً

وزاد اخيراً انهم سادة غالبين واصبحنا تابعين مغلوبين

ماذا نجيب « نحن » عن هذا السؤال ؟

نحن — ومن نحن ؟ نحن السوريون ولا يبلغ عددنا الثلاث ملايين لا نستطيع لا في الصناعة ولا في التجارة ولا في الغنى ولا في القوة واتساع السلطة ان نلحق الفرنساويين بل نبقى « على الأرجح » كما صرنا تابعين لهم « ويجوز ان نتدغم بهم ولا سيما النصارى اللبنانيون » . لكن لو كنا ألحقنا بالانكليز تلك الأمة السكسونية القوية ذات المخالب والأضراس الحديدية ما كنا ندري الى ماذا مصيرنا . فانه يجوز ان نبقى تابعين لهم كما نتوقع ان نكون مع الفرنساويين ويجوز — ولا سيما اذا ناظرناهم او خالفناهم — ان ينسروا لحومنا بأسنانهم القوية ويطحنوا أعظامنا بأضراسهم الحديدية وتكون آخرتنا معهم كآخرة الاستراليين في استراليا او الهنود والاميركان في اميركا او نبقى عندهم كما بقي اهل جبعون . عند الاسرائيليين محتطبي حطب ومستقي ماء لبيت الرب الى آخر الدهر وإن لم نطق ذل الخدمة والعبودية نتفرق على وجه كل الأرض كما تفرق من قبلنا افرايم ومنسى او كما تفرق يهوذا وبنيامين لكن على غير أمل بالعودة كما يأمل اولئك الآن

ماذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن اهل العراق والموصل ولا نزيد عن المليونين الا قليلاً وصاروا الآن يحسبون ثلاثة ملايين لا نستطيع لا في عدة ولا في عدد وشدة ان نلحق الانكليزيين اسياد الهنود والافغان والتبت والفرس في آسيا وكل الحاميين في افريقيا . غداً يملأون علينا بلادنا الخصيبة بلاد بابل واشور مهد التمدن السامي ومركز الصناعة والتجارة الى عهد اليونان والرومان بل الى عهد العرب وابان عز الاسلام نعم غداً يملأون علينا بلادنا هذه هنوداً وملقيين وساميين واماميين وربما زنجاً وهوتنتيين فاما ان نستكين ونرضى كما يرضى المغلوب والفقير والمكسور الذليل او نرحل مع الشمس لا نعلم الى اين المصير

ما ذا نجيب نحن ؟

ومن نحن ؟ نحن الذين نتكلم العربية لغة القرآن والحديث وأم لغة التوراة والمزامير ويبلغ عددنا نحواً من خمسين مليوناً واذا اضفنا الينا بني امنا العربية وبني ابينا ابراهيم أعني اليهود ابناء عمنا بل اخواننا في اللغة والنسب بلغ عددنا نحواً من ستين مليوناً ونيف

نحن هؤلاء المتكلمين باللغة العربية لا نستطيع شيئاً الآن لأننا متفرقون متشتتون لا صلة بيننا ولا جامعة الا جامعة اللغة العربية . ولو كان الكاتب مسلماً لزاد جامعة الدين على جامعة اللغة ايضاً . ونعمت كانت الجامعة رابطاً بيننا لو لم يطعنها بعضهم طعنة كادت تقضي عليها

نحن هؤلاء على تفرقنا الجغرافي والسياسي الحاضر أصبحنا لاقدرة لنا ولا قوة فينا . ولولا بقية امل لنا في مصر لكنت اقول انه قضي علينا بالبقاء الى ازمنة على ما كنا عليه أي بالتأخر عن الغربيين في العلم والصناعة وما اليهما من الغنى والقوة (وهما الغاية من العلم والصناعة) . واذا لم يتداول الأمر أعملنا لغتنا ايضاً فلم تنقل اليها علوم القوم وثمرات عقولهم واختباراتهم الواسعة زاد تأخرنا عنهم واتسعت دائرة البعد بيننا وبينهم اتساعاً يقضي على كل آمالنا في المستقبل

واراني وصلت الى ما قصدت له بالذات في هذه المقالة اعني تعريب الكتب العلمية والفنية وما الى هذه الطريقة التي ينبغي ان تتبع في ذلك . ولكن لا بد لي من الاستطراد الآتي فانه يحاش على قلبي فلا استطيع ان اخطو خطوة قبل ان ادفعهم عن معدني المصابة بما يشبه الدوار البحري الشديد واليكم الاستطراد

الاستطراد

كان لنا اي المتكلمين بالعربية جامعتان جامعة اللغة وجامعة الدين وهما جامعتان اساسيتان ومن أشد الجامعات لتكوين الأمة والمملكة ثم ربطتنا (اكثرنا) الجامعة الدينية بالعثمانيين الاتراك فتألفت من ذلك الممالك العثمانية في اوربا وآسيا وشمالي افريقيا ولسوء الطالع تغلب العثمانيون على اقوام والحقوهم بمالكهم وهم لا يربطهم بالعثمانيين من الاتراك والعرب جامعة ما غير جامعة التغلب والقهر فكانوا سبباً في ضعف الدولة العثمانية وما زالوا اشواكاً ومناخس في جسمها يثورون عليها ويعالثون اعداءها حتى انفصلوا عنها أخيراً

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط بل كانوا علة لانفصال كثير من البلدان العربية عن العثمانية رغم الرابطة الدينية الشديدة التي كانت تربطهم بالعثمانيين الاتراك . وذلك لبعدهم عن مركز العصبية العثمانية في آسيا الصغرى وبما كان حصل للدولة من الضعف والانحطاط بتوالي الثورات التي قام بها اولئك الاقوام من اليونان والبلغار والرومان والصرب اقوام ادمجوا في العثمانية ثم رابطة تربطهم بها الا رابطة التغلب والقهر . ثم قام اقوام افسدوا الجامعة الدينية التي كانت تربطهم بالاتراك العثمانيين وكان بها عزهم وعليها بنيت دعائم مجدهم فسقط بسقوطها بناء العثمانية الشامخ الى الحضيض وتفككت اوصالها واصبح المتكلمون بالعربية اشتاتاً بعد ان كانوا عصبة واحدة

وغاية ما اريد الوصول اليه وتمكينه في النفوس انه كان للمتكلمين بالعربية جامعتان جامعة من الدين والسياسة وتسمت مؤخراً بالجامعة العثمانية وجامعة من اللغة العربية وانفكت

الجامعة الاولى بفصل اولئك المنفصلين « من كانوا » ولم يبق لنا إلا الجامعة الثانية جامعة اللغة . فاذا لم نحرص عليها و نبذل غاية مجهودنا في احيائها ورفع علمها فوق كل علم بقي لنا فقل على العرب وعلى التضامن العربي السلام الى ان يأذن الله بانقلاب الطبائع والأحوال ولنعلل انفسنا بهذه الأماني والآمال ورحم الله من قال :

أعلل النفس بالآمال ارقبها ما اضيق العيش لولا فسحة الأمل

obeikandl.com

نهضة الشرق العربي

وموقفه ازاء المدنية الغربية

(قضية كلية) « لا بد لكل نهضة سياسية من أسباب تدعو اليها ووجيه يسندها تستتبع وجاهته وجاهة بقية الوجهاء وينتفع هو وهم منها كل من بحسب وجاهته ثم لا بد من مال ينفق على مروجيها والآخذين بنصرتها وتعميمها الى ان تبلغ غايتها » اه

نفهم بنهضة الشرق العربي النهضة التي نراها امامنا الآن ونكاد نلمسها بأيدينا وهي نهضة سياسية تطلب الاستقلال السياسي والتخلص من جور أوربا الاقتصادي والجنسي . ونعني بالجور الجنسي ما ينظره جنس غالب الى جنس مغلوب وسيد الى مسود وقد يغني عن كل ذلك أن نقول كما ينظر الانسان غربي الى شرقي أو أجنبي ولا سيما انكليزي وفرنساوي الى وطني mative في العراق وسوريا وحتى في نفس مصر زهرة الشرق العربي وروح النهضة الحالية وقلبها النابض

ولا بد لي قبل ان ابدأ كلامي عن هذه النهضة من تقدمة ما يأتي وهو :

أولا — اني أصور ما اصوره عن هذه النهضة وفقاً لما في ذهني كما فهمته من مطالعاتي وشعرت به من اختباراتي التي كانت تتابع شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة منذ صرت اتأثر من المحيط الذي حولي وأؤثر فيه الى الآن . ولا شك ان ما كنت افهمه من مطالعاتي واختباراتي ومن المحيط حولي والحوادث التي تتعاقب فيه لم يبق على حالة واحدة بل كثيراً ما كان يتولاه النقض والابرام فتارة تنسخ معلوماتي اللاحقة معلوماتي السابقة وتارة تؤيدها وبالعكس .

وكثيراً ما كنت أعدل عن فهم مضى الى فهم استجد ثم أعود فأرجع عن المستجد المعدول اليه الى القديم المعدول عنه وبعبارة اخرى كثيراً ما تضاربت افكاري وتناقضت مفهوماتي واحكامي ونسخ سابقها لاحقها ولاحقها سابقها قبل ان استقرت على الشكل الذي اصوره الآن وهو شكل في ذهني لم ارجع فيه وانا اصوره الى تاريخ مكتوب يمكنني الرجوع اليه كحجة والاستشهاد به بل لا أضمن ان توافق افكاري ومفهوماتي الآن في مقالتي هذه كل او معظم افكاري ومفهوماتي وكتاباتي التي سبقت . ولذلك فمن ينتقدني في نفسه او في مجلة فلينتقد مفهوميتي نفسها لا زمان وقوعها ولا المكان الذي وقعت فيه فيما اذا أشارت الى زمان او مكان

ثانياً — لا يسعني الحال ان استوفي الكلام على هذه النهضة في الأقطار العربية الثلاثة أعني العراق والشام ومصر وثلثها اكتفي بما اعرفه عنها اجمالاً في سوريا وربما أشرت اشارة اليها في العراق وفلسطين ثم بحسب ما في الامكان وما تحتمله صفحات الهلال أشرح حال النهضة في مصر

النهضة في سوريا

كان قبل هذه النهضة نهضة سبقتها في ايام مدحت باشا ولكل اسبابها . أما اسباب النهضة ايام مدحت باشا فكانت لتفكيك عرى الاتحاد العثماني ومن أشهر ما نظم أثناءها قصيدة

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وكان من ورائها انكلترا وأما مدحت باشا فكان فزّاعة بين ايدي ساستها الذين كانوا يحاولون بها الوصول الى السودان والاستيلاء عليه أو على الاقل دقّ وتد جحى فيه الى ان يحين لهم الوقت المناسب مع الأيام . لكن مع كل ما بذله مدحت باشا لأجل ترويجها لم تكن البلاد في استعداد لها ولم يكن أيضاً قد حصل التفاهم بين الانكليز والفرنساويين عليها فتلاشى أمرها بعزله ونقله الى ازمير ثم أخذ من هناك تحت الحفظ بتهمة اشتراكه في مقتل المرحوم عبد العزيز وارسل الى مكانه المرحوم حمدي باشا والياً على الشام فلم يحتج هذا الوزير الأمين لدولته الى اكثر من الأمر بحبس واحد من الشبان الذين بالغوا في اثارة الخواطر من غير ما تقية ولا تكتم فاشتملت عليه القنصلية الانكليزية في دمشق وتوسلت لاخراجه من السجن وارسلته بصورة مبعد كما اظن الى القاهرة وهناك تعين على أثر وصوله ترجماناً لجيش الاحتلال . هذا خلاصة ما بقي في ذهني من امر المرحوم شاكر بك الخوري ولا أكفل ما أثرت فيه الايام من التكيفات الخفية ولكنها لم تكن شديدة ولا كثيرة كما اؤكد للقارىء العزيز

على ان هذه النهضة لم تذهب بلا فائدة للدافعين اليها أعني انكلترا . وأثرها على ما اعتقد وكما فهمت من كل حوادثها وما تلاها حتى الآن هو ان الاستانة تساهلت فأذنت بارسال الحملة الانكليزية لتخليص غوردون باشا وكان هذا بذهابه الى السودان قد هيّأ كل الوسائل لتمكين الدراويش من الاحاطة به في الخرطوم، قطع خط الرجعة عليه وعلى كل من كانوا هناك. وأغارت تلك الحملة على الخرطوم وكل السودان حتى وادي حلفا يغلي غلياناً بالثورة التي انتهت اخيراً بالشكل الذي نعلمه بدق « وتد جحى » أولاً ثم بتجريد الحملة الانكليزية المصرية بعد مضي سنين بقيادة الجنرال كتشنر باشا المشهور وتحت رايتين انكليزية ومصرية معاً على نفقة مصر كما اظن

هذه هي النهضة الأولى في سوريا وكانت نهضة سياسية عربية لكن ضد الأتراك . ثم كانت النهضة العربية قبل الحرب العظمى العالمية وقبيل او اثناء الحرب البلقانية وهذه ايضاً كانت ضد الاتراك . ثم جاءت النهضة الحالية وهي نهضة عربية شرقية تطلب الاستقلال السياسي والاقتصادي والجنسي

أسباب النهضة الحالية

من منا لا يتمنى ان تكون هذه النهضة قائمة على اساس وطيد يضمن لها البقاء بل من منا لا يتألم عن مجرد الفرض انها فوران وقتي لا يلبث ان يخمد ؟ لكن هل تسوغ لنا عواطفنا ان نكذب انفسنا ونغفل عما كان يمر بنا منذ ايام قلائل ؟ البارحة كنا — أي اهل سوريا وفلسطين — نستقبل الحلفاء باطلاق البارود وزلاغيط النساء وقرع الاجراس في قبب الكنائس وآذان المؤذنين في الجوامع ونحمد الله ان خلصنا من العثمانية وظلم الظلام القاسطين الغاشمين. بالأمس اسرع عليتنا في بيروت واكابر اعيانها بأوتوموبيلاتهم يتلقون الفاتحين الى عكا او صور وتهولني ان اقول ماذا كان يقال في اجتماعات كثيرة عند وصول الجيش الفاتح وماذا سبق به الطراس ينفثونه في آذان الكثيرين من الأهلين أعني في آذان الأعيان والكبراء وفي آذان اهل النباهة وذوي اللسن من الادباء والخطباء والكتاب الخ الخ . وكيف كانت تتكيف الافكار وتتقلب الخواطر بين اسبوع واسبوع واحياناً بين يوم وآخر والى الآن لم تستقر على شيء ثابت بعد بل لا نعرف كل ما نريده تمام المعرفة

نعم نشاهد نهضة سياسية — وان كانت تلبس احياناً لباس نهضة ادبية اجتماعية — فما سببها ؟ خابت آمالنا بدول الحلفاء وخيبة الآمال ليست بسهلة . رأينا انفسنا في امور كثيرة كنا نحب التخلص منها ولا نزال حيث كنا بل في سرّنا قد نقول إنا رجعنا الى الوراء . كنا عصبة واحدة أولي قوة فاذا بنا جماعات متفرقة ضعيفة . كنا اولاً ولاية واحدة او ولايتين فاذا بنا دول سبع . يا لمرارة ماشعرنا ونشعر به ! وأمرّنا نفساً التجار واهل الصناعة والزراعة بل اصبح يشعر بالمرارة حتى العمّلة ومتعاطو الاسباب التافهة ودع عنك الأدباء والكتاب فانهم بدأوا يشعرون ببوار حرفتهم الشريفة . لكن الأولى بنا ان لا نحركهم فانهم فيما اعتقد ابعد الناس عن الاعتراف بمرارة النفس التي عم الشعور بها او كاد يعم كما انهم ابعدنا عن الاعتراف بخيبة آمالنا وقد خابت . ومعنى كل ماقلته قد يفهم منه ان نهضتنا العربية الشرقية الحالية اشبه بفوران وقتي ان لم تكن فوراناً ولكني لا اقول ذلك لأني يؤلمني حتى مجرد خطور هذا الخطر في بالي

دعوني اذن اقول ان نهضتنا هذه هي نهضة حقيقية . نعم وقد بدأت تكون كذلك

باذنه تعالى ولا اقول ذلك مجرد رياء ارضاء لعواطفي وعواطف مواطني بل هناك مايسوغ لي قولي هذا ويصحح حكمي وهو ان شدة مرارة انفسنا نبهت انفسنا لدرجة من الشدة لا يزول أثرها بسهولة فأصبح يجوز لنا ان نعتمد على تكيفات الوجود التي قد تأتينا بما يحقق آمالنا من حيث لا نحتسب . على اني مع الأسف اقول اني لا أرى في سوريا وجيهاً تستتبع وجاهته ماسواها من الوجاهات ويقر له بقية الوجهاء برياسته ثم هو يطمع بالانتفاع من هذه النهضة وعنده من المال ما ينفق عليها الى ان تستحكم في النفوس وتبلغ درجة لا يستطاع قلعها منها ولا تحويل الأفكار عنها . لو كنت أرى مثل هذه الوجاهة ماتوقفت ولا ترددت في حكمي عن اصالة هذه النهضة وثباتها الى ان يبلغ اهلها ما يريدون . نعم ليس امامي الآن ما افزع اليه فأؤمل من ثم لأجله باستمرارها وازدياد عدد الناهضين بها وشدة تضامنهم أيضاً الى شدة مرارة نفوسنا بما كان من خيبة آمالنا وانكشاف مقاصد الحلفاء بعض الانكشاف لنا ولا اقول كل الانكشاف فاني كنت اخاف ولا ازال اخاف من سذاجتنا التي تصدق كل ما تسمع من خوالب العبارات وتنخدع بها

***

يكفي ماذكرته عن سوريا ولبنان واترك الأمر في العراق وفلسطين وشرق الأردن الى عارف بأحوال هذه البلدان العربية من بنيها فان الابن لا يتهم كما يتهم غيره وغاية ماأقوله أو استطيع اقوله اني اخاف على هذه البلدان العربية ان تصبح ملعباً للسياسة الغربية وهنا الخوف كل الخوف فاني ارى من وراء ستار السياسة اللاعبة على لوحة فلسطين وأرض الفراتين الى شطوط البحر الاسود شمالاً وبحر قزوين شمالاً شرقياً قوماً سحرة بل اسحر السحرة السياسيين الذين يستطيعون بسحرهم ان يفرقوا بين المرء وزوجه وبين الأم وبنيها

النهضة في وادي النيل

ان اول نهضة عربية شرقية حسب الظاهر كانت نهضة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الكبير وما اتصل بأذيالها من الحركة العرابية ولكنها كانت لتفكيك عرى الوحدة العثمانية وقد رتب معظم فصولها الساسة الانكليزيون الماهرون واليك البيان :

لا آخذ القارىء الآن الى ايام نابوليون بونابرت القائد العظيم وموقعة أبي قير ولا الى ايام محمد علي باشا وما كان في ايامه الأولى الى ان قضى على المماليك واصبح والي مصر لا ينازعه منازع فان السياستين الانكليزية والفرنساوية كانتا حينئذ بل بقيتا الى ما بعد الحملة المصرية الابراهيمية بل الى سنة سبعين على طرفي نقيض إلا في فترة قصيرة تغلب فيها دهاء بالمرستون على نابوليون الثالث حتى استجره الى محاربة الروس سنة ١٨٥٦

بعد سنة السبعين بدأت السياسة الانكليزية تتقرب من السياسة الفرنساوية وكأنما الفرنساويون انتبهوا بعد اندحارهم امام الالمان الى ان السياسة النابوليونية القائمة على معاندة انكلترا ومزاحمة نفوذها في مصر سياسة عقيمة فاتفقت السياستان على الأمر المشترك بينهما وهو تفكيك عرى الاتحاد العثماني وان تقنع كل منهما بحصتها وتعدلا عن المزاحمة بينهما

ورأت الدولتان في المرحوم اسماعيل باشا الرجل القويم الجسور الطموح المفتوح اليد بل بالحري المبذر الوسيلة العظمى لهذه الغاية فأعانتاه على طموحه فنال في سنة ١٨٦٦ خطاً شريفاً مؤذناً بالارث الصريح في عائلته . وفي السنة التي تلتها نال لقب خديوي وهو أرفع رتب وزراء الدولة

ولم يقف اندفاعه عند هذا الحد فزار الاستانة سنة ١٨٧٣ وقوبل فيها بأعظم الترحاب ونال من التفات الحضرة الشاهانية المرحوم عبد العزيز مالم ينله احد قبله من اهل بيته . ثم لم يلبث ان عاد الى مصر حتى جاءه الفرمان الشاهاني يخوله كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لأول ابنائه والاستقلال بالأحكام الادارية واقامة المعاهدات مع الدول الاجنبية واستقراض القروض الخ . . .

ويظهر من مطالعة هذا الفرمان ان الخديوية المصرية اصبحت به مستقلة فعلاً كاستقلال اية دولة وضعت يدك عليها من دول اوربا حاشا الدول الست العظام . نعم اصبحت بالنسبة الى العثمانية الضعيفة مستقلة تمام الاستقلال وانفكت عروة ارتباطها بالاستانة الى الدرجة التي كان يريدها القوم

بدأ المرحوم اسماعيل باشا بعد هذا الفرمان بالاسراف في نفقاته وبالاستقراض لها ولمشروعاته التي كان كثير منها لخير البلاد ولظهور لمحة عليها من لمحات أبهة المدنية الاوروبية كما ان منها ما كان لاظهار أبهة الخديوية وعزة الملك حتى اذا اكمل دوره في التمثيل الذي اراده القوم وكانت الحرب الروسية العثمانية قد انتهت وامضيت معاهدة برلين التي اعطيت فيها الهرسك والبشناق لاوستريا وقبرص لانكلترا اولاً ووقع الاتفاق السري بين فرنسا وانكلترا على ان تحتل الاولى تونس والثانية مصر وفقاً لبروجرام تقاليدهما القديم

لما تم كل ذلك وجاء الوقت لأن تستلم انكلترا حصتها ولم كانت تعلم ان دون استلامها واسماعيل العظيم على سرير الخديوية خرق القتاد في الليلة الظلماء أقيل المرحوم اسماعيل باشا ونصب مكانه ابنه المرحوم المغفور له محمد توفيق باشا

نعم نزل اسماعيل العظيم عن سريره بمصادقة الاستانة التي كان انتهض عليها وظن بأنه فاز بما نهض لاجله والحقيقة ان الفوز كان لمن كانوا يدفعونه الى ما وافق هوى في نفسه

وظاهره مجد لمصر واستقلال له ولها عن تسلط الاستانة وتدخلها في شؤون بلاد النيل المبارك تدخلا يعوقها عن السير في معارج الفلاح او يؤخرها الى ازمنة من بلوغ المجد الخليق بها

***

النهضة العرابية

احتلت فرنسا بلاد تونس ووجدت المسوغ لاحتلالها في تأديب قبائل الخمير التي كانت تعيث فساداً كما ادعي على حدود الاملاك الفرنساوية وبقي على انكلترا وفقاً لتفاهمها مع فرنسا ان تجد مسوغاً شرعيًّا ظاهراً لاحتلال القطر المصري فظهرت الحركة العرابية وكان ظاهرها لازالة الاستبداد العسكرى التركي بأبناء مصر واعطائهم حقوقهم الخليقة بهم بحيث يسيرون هم والأتراك والشراكسة ومن اليهم على مستوى واحد وفي الوقت نفسه لازالة الامتيازات الاجنبية والتخلص من استبداد ابناء الرعويات الاوربية التي كانت قد بلغت في فظاعتها الى ما لا يطاق

ما كان أحلى ظاهر تلك النهضة وما اخلجها للب ولذلك نالت عطف معظم الأهلين على اختلاف طبقاتهم فى مدة اقصر من يوم المسرة ولقاء الأصحاب ولكن يالالاسف فان الذين خدعوا المرحوم اسماعيل باشا الكبير لا يمتنع عليهم ان يخدعوا عرابي باشا وبضعة من الضباط رفاقه

فلما أتمَّ هذا دوره وبلغ الغاية التي يريدون ان تقع ارسلوا بوارجهم وكان ما كان من احتلالهم القطر المصري كما احتلَّ الفرنسايون القطر التونسي ولكنهم لم يقفوا عند هذا الحد لأن من بروغرامهم احتلال السودان ايضاً بل احتلال هذا القطر كان ولا يزال عندهم أهم من احتلال مصر . بقي عليهم إذن ان يدبروا الوسائل لاحتلال ذاك القطر كما دبروها لاحتلال الاسكندرية والقاهرة ولا بد قبل الاحتلال من التفاهم بينهم وبين الفرنساويين لأن عين أولئك كانت متوجهة الى مراكش كتوجه عين هؤلاء الى السودان

ومن الدهاء العجيب بل قل من حسن السياسة التي يجب على الشرقي العربي أو التركي أن يتعلم مثلها او يفطن لها هو ان المحتلين استعانوا بالاستانة على خلع عرابي كما استعانوا بها على خلع المرحوم اسماعيل باشا واظهروه أي عرابي اخيراً بمظهر عاص على خديويه وخليفته العظيم عبد الحميد غفر الله لهم اجمعين ولنا معهم

النهضة الكاملية

نهضة المرحوم مصطفى كامل كانت وسطاً بين النهضة العرابية مسببة عنها وبين نهضتنا هنا الحالية المباركة وسبباً لها . والفرق بين ماتقدمتاها وبينها ان النهضة الاولى التي كان قطبها اسماعيل والثانية التي كان قطبها عرابي كانتا لفك عرى الاتحاد العثماني ومصة من مصات عقد رابط ذلك الاتحاد وكان العاملون فيها من وراء الستار هم الانكليز والفرنساويون بالدرجة الأولى ومن سواهم بالدرجة الثانية وأما هـذه فالعاملون فيها كانوا وما زالوا من الوطنيين

انقضت معركة التل الكبير وأبعد المرحوم عرابي باشا الى جزيرة سيلان وأبعد غيره كثيرون الى مناف غيرها واستلم زمام الأمر والنهي في الجيش المصري ضباط من الانكليز بدلاً من الأتراك والشراكسة الغاشمين العاسفين كما كانوا يزعمون او يدعون . وبدأ اهل النهضة الوطنيون العرابيون يتوقعون ان يتحقق لهم ما كانوا يحلمون به ويسعون اليه ولعلهم كانوا بمكان من السذاجة كما كنا حتى كانوا يصدقون ان القوم غايتهم في رتة العود — في خدمة الحق والانسانية وانصاف الأقوام المظلومين والاحسان الى الفقراء والمساكين — لا في رتة العود — الاستئثار بالسلطة واستنضاض المنافع واحتياز الأموال

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـة فلعلة لا يظـلم

مرّت على الضباط العرابيين بضع سنين ينتظرون فيها ان يتحقق لهم ما كانوا يؤنسون به فاذا بهم بعد ان كانوا يأمرون من تحتهم من الأتراك والشراكسة ويأتمرون بأمر من فوقهم اصبحوا لا يجسرون ان يأمروا وان نفراً بسيطاً من الانكليز فكيف بالألوف وجيوش أو السرجنت

ثم جلس عباس حلمي على اريكة الخديوية وكان شابًّا قوي البنية قوي الارادة قوي التدبير المالي وهو يظن انه امير البلاد وله الأمر والنهي أو قل معظم الأمر والنهي فيها من اقصاها الى اقصاها فما اسرع ما خابت آماله حين رأى يد كرومر من فوق يده يد يغطيها مخامل الحرير الناعمة ومن وراء تلك المخامل حسك الحديد القاسية تحز اللحم وتنفذ في العظام

تولد في نفس عباس كره شديد على نسبة شدة شكيمته ومرارة نفسه ومرارة النفس هذه كان ولا شك يشاركه فيها كل امراء البيت الخديوي وكل اعيان البلاد وكبراؤهم وكل أمراء العسكرية على نسبة ما تحيف من وجاهتهم ونفوذهم ومن لم تتحيف اليد الحديدية من كرامته ونفوذ جاهه في كل القطر المصري ؟ وأحسّ المغفور له السلطان عبد الحميد

بما فعلته السياستان البريطانية والفرنساوية وما ترميان اليه في المستقبل فمدّ كلتا يديه اليمنى الى الامبراطور غليوم واليسرى الى عباس حلمي باشا بما يشجعه على مناهضة السياسة الانكليزية واظهار كرهه لها

وما ذاك بخلاً بالنفوس عن القنا ولكن صدم الشر بالشر أحزم

أشرنا في اول هذه المقالة الى ان المال والوجاهة من اشد ما يسند النهضات السياسية والقائمين على نشرها وتمكنها في النفوس وقد تكفل بذلك البيت الخديوي واكابر اعيان البلاد . فأين الرجال بل أين الرجل الذي ولدته الأيام في مصر لحمل هذه الأمانة والقيام بتلك النهضة التي هي أمنية كل أمة ومطمح كل شعب له ماض مجيد غلب على امره واستبدّ به ؟ ولد لحمل هذه الأمانة والقيام بنشرها والدعوة اليها المرحوم مصطفى كامل باشا فلحيي ذكر مصطفى كامل وليخلد اسم هذا الوطني الكبير في قلب كل مصري وناهض عربي وشرقي وليكتب اسمه واسم كل من لبى دعوته من الادباء والعلماء والاعيان والصلحاء والذين كانوا من ورائها يسندونها بمالهم وجاههم من الأمراء والوزراء — ليكتب اسم كل واحد من هؤلاء في سجل مفاخر ابطال الامم

فذلكة

إن نهضة المرحوم اسماعيل باشا كانت مقدمة للنهضة العرابية ولا يدر لها اي للنهضة العرابية ولا يدلها أي للنهضة العرابية فيها وهذه بدورها جاءت مترتبة على ما قبلها وعلة للنهضة بعدها اعني النهضة الكاملية الخالدة

هذه النهضة الوطنية لكسر نير سيطرة الأجنبي ومحو سواد الذل والمهانة عن محيا كل ابناء وادي النيل بعثت النفس المصرية من سباتها العميق وزعزعت ذلك الاعتقاد الراسخ كان في النفوس بانحطاط الهمم وصغر النفوس وميزة الغربي بالفطرة على الشرقي وابتعثت معها نهضة ادبية تكاد مصر لم تشاهد مثلها منذ الايام الاولى الى الآن ويكفي الاشارة الى الأدب الجم العالي الذي ظهر في خطب المرحوم مصطفى كامل باشا وفي مقالاته السياسية ومؤلفاته العديدة وفي مقالات المؤيد وكتاباته وفي كتابة كل الجرائد والمجلات المصرية الآن على اختلاف نزعاتها ومواضيعها والغايات التي ترمي اليها

وأدباء القطر المصري بل أدباء كل الاقطار العربية يعرفون نفاسة ما ظهر من المؤلفات والتراجم في اثناء الثلاثين السنة الأخيرة وما اراني بعيداً عن الحقيقة فيما لو قلت ان الآداب العربية في مصر عادت بهم — بالأدباء المصريين كلهم لا اخص فئة دون فئة

ولا مذهباً دون مذهب ولا قديمي الوطنية دون مستجديها ـ الى ما كانت عليه فما اعظم زهوها الى ما بعد القرن الثالث والسادس من الهجرة العربية

وانبعث ايضاً مع النهضة الادبية احترام كلي للنفس فمات ذلك الاعتقاد المحط بالنفس المذل لها والذي كان اكبر مسبب لخلودها واستكانتها الى الرق المعنوي الذي هو اشد ايلاماً وضرراً في البلاد من الرق السياسي فأصبح المصري لا يقر بالميزة للاجنبي كما كان (وكنا لا نزال في غير وادي النيل) قبلاً واصبح شائعاً عند خاصتهم وعامتهم ودينا مصدقاً ان طبيبنا ينقص عن طبيبهم ولا يجوز ان ينقص وصيدلينا لا ينبغي ولا يجوز ان ينقص عن صيدليهم وكذلك كاتبنا وأديبنا وعالمنا ومعلمنا وصانعنا وتاجرنا الخ الخ . وبكلمة اخرى استفاق فيهم احترام النفس واعتقاد الكفاءة بالذات ـ وكما تشعر النفس كذلك تكون

كل هذا مما يسوغ لي الحكم ان النهضة المصرية الوطنية الحالية اصبحت نهضة متمكنة في النفس يصعب اطفاء جذوتها المقدسة من نفوس القائمين بها مهما قاومهم المقاومون وسيبذل الغرب ودول الغرب كل ما في وسعهم لمقاومة روح هذه النهضة ولا سيما اهل السياسة وملوك الأموال الذين فاق استبدادهم بالانسانية كل استبداد سبق للكهان والملوك والأمراء والأعيان . وبفوز النهضة المصرية ينهض الشرق عن آخره كثيراً او قليلاً كل قطر على حسب استعداده »

وفي نفسي تفاصيل كثيرة في شأن ما يدعم هذه النهضة من الوسائل ما لا استطيع بيانه الآن وربما الى اجل غير مسمى ولا اظن تسعني فيه صفحات الهلال العزيزة فالمعذرة من القراء الافاضل والسلام